نوفيلا
مردوخ
"ألواح القدر"
نوران أشرف

مُقدمة

الظلام لا يجعل حياتنا مُعتمة، بل حياتنا المُعتمة هي ما تجعل النور ظلامًا، وهي ما تجعل النهار ليلًا والبهجة تعاسة، لكن في هذا العالم، يبقى الظلام هو المُتحكم الرئيسي فيما يحدث، هو ما يُحركهم صوٌب المجهول، وما يُخفي عنهم المعلوم.

تلاطمت الرياح ببعضها لتُخلف وراءها صوٌتًا من الأجراس الكفيلة ببث الرُعب في النفوس، وفي تلك الصحراء الجرداء المُعتمة، كانت هذه الأقدام تهرول وتنغرس في الرمال مُتحدية بذلك هذه الرياح العاتية التي تسببت بغلق أجفانهما وتعسير عملية تنفسهما.

اشتدت الرياح وبدأت تدفعهما للوراء حتى تعركل الرجلان وسقط واحد منهما على الرمال لكن يد الآخر رفعته عن الأرض ليواصلا العدو ويأخذا تلك الحقيبة التي سقطت هي الأخرى فوق الرمال.

بدأت الأصوات الغريبة تتداخل مع الرياح وتضرب أذانهما، أصواتٍ تبدو من لغة أخرى لا يعرفا من أين مصدرها، لكن صوٌتها الجهوري رغم أنه أصابهما بالرُعب، إلى أنه لم يمنعهما عن العدو ومواصلة الطريق.

-يلا يا بابا بسرعة

قالها مراهقٌ يافعٌ بالسادسة عشر من عُمره لوالده المرافق له والذي كان بمُقتبل الأربعين، توقف والده عن السير وبدأ يلتقط أنفاسه بصعوبة وضع معها يده على صدره حتى خارت قواه ووجد قدميه تفقدان القُدرة على حمله وتجعلانه يسقط على الأرض بشهقاتٍ لا تنفك تتوقف.

ارتمى الوالد على الأرض بجوار تلك الحقيبة البنية وركع ابنه بجواره كمحاولة لتشجيعه لمواصلة السير:

-يلا يا بابا قوم .... خلاص قرّبنا نوّصل

تراخى جسد والده أكثر وبدأ يشعر بانقباضة بصدره مع عرقٍ يتصبب على جبهته، لكنه ورغم خمول جسده إلى أنه قبض على يد ابنه حتى يُخبره بكلماتٍ مُتقطعة جاهد حتى يجعلها تخرج من جوفه:

-الـ...التمـ ... التمثال....

ما إن أنهى كلماته حتى تراخت عضلاته بالكامل وأغلق عينيه مُعلنًا بذلك انتقاله إلى خالقه.

لم يُصدق ابنه أن والده يلقى حتفه أمام عينيه وفي مكانٍ كهذا، فما إن أغلق والده عينيه وتوّقفت أنفاسه حتى تصاعدت ضربات قلبه وبدأ يُحرك والده ويناديه بهستيرية لعله يفيق ويُخبره أنه بخير، لكن ما وجده هو السكون التام، لا أنفاس، ولا كلماتٍ تخرج من والده العزيز.

اشتدت الرياح لتُخرجه من ضيقه وحسرته وتُذكره أنه يجب أن يُنفذ كلمات والده؛ جفف دمعاته الواهنة ليُبدل حسرّته بعلامات الصمود والاصرار، انتشل الحقيبة القماشية بحدة ووثب عن الأرض ليتحرك فوق الرمال بعزيمة ونيرانٍ جارفة تنطلق من عينيه.

استطاع تخطي الرياح وتجاهل الأصوات ليثب في النهاية داخل كهفٍ عتيقٍ يقبع وسط رمال تلك الصحراء، تقطعت أنفاسه لوهلة وبدأ بالسُعال لكنه تماسك قدر الإمكان وفتح الحقيبة القماشية ليُخرج منها تمثالًا عتيقًا يتفرع منه جناحين كبيرين يتوّسطهما خُنفساءٌ كبيرة مع دائرة تقبع على عرش كل ذلك.

تهدجت أنفاسه وتذكر وفاة والده وهو يرفع هذا التمثال اللعين ويُطلق صرخة مدوية وهو يُعيد التمثال مكانه، على أمل أن تنتهي تلك اللعنة....

الفصل الأول (اللعنة !!)

أشعر وكأنني غريب، ليس على الوطن، بل على العالم...

أغلق دفتره بعد أن أنهى تدوّين هذه الكلمات وغيرها من الكلمات المُفعمة بحروقٍ اليأس من هذه الحياة عديمة الفائدة، كانت الشمس ساطعة تلح على نوافذ الحُجرة حتى تسمح لها ببث أشعتها داخل هذا المكان المُعتم، كيف ستستطيع الولوج وصاحب هذه الحُجرة يتخذ من العتمة رفيقًا له ومن اللون الأسود أعز أصدقاءه ؟

لم يكن يرغب بترك فراشه ومواجهة هذا العالم، كان يُريد البقاء وحيدًا دون أن يُزعجه ثرثرات المارة ومشاغل الحياة اليومية، فاللذة والسعادة بالنسبة له، ليست بأن يتم محاوطته بأصدقاءه وآقاربه، السعادة بالنسبة له تتلخص في البقاء وحيدًا داخل حُجرته دون أن يُعكر صفوه أي من البشر السُذج.

مرر فخر يده على خُصلات شعره الداكنة الأشبه بالقُنفذ من قله اعتناءه بهم، فلماذا يعتني بُخصلات شعره وهي خاصة به هو وحسب ؟ وليس لأي شخص حُرية الحُكم في هيئته ومظهره الذي دائمًا يتعمد أن يجعله مُهترئًا لا مباليًا بنظرات الجميع.

مدّ ذراعه صوّب الخزانة متجاهلًا جميع الكنزات الملونة ليلتقط كنزة سوداء فاحمة تُشبه خُصلات شعره وما يكنيه تجاه هذا العالم، لا يذكر أن الابتسامة ارتسمت على ثغره من قبل لكنه لا يكترث لهذا أيضًا، فالابتسامة ما هي إلا تعبيرًا عن السعادة، وهو لا يجد أية سعادة حتى يُعبّر عنها.

واصل ارتداء أوّعيته المكوّنة من كنزة قُطنيه سوداء يلازمها غطاءً للرأس وأسفلها بنطالٌ رماديٍ اللون تماشى مع هيئته ومع كنزته الداكنة، أمسك حقيبته السوداء ليضعها على الطاولة ويبدأ بانتشال كُتبه الدراسية حتى يملأ بها تلك الحقيبة جبريًا، فهو لا يُريد الذهاب إلى تلك الجامعة، وما يدفعه للذهاب يوميًا هو رغبته بالحصول على الشهادة وبدء حياة عملية تُساعده على جني الأموال وابتياع منزلٍ ليقطن به وحده!!

نعم، هذه هي أمنياته، لا يرغب بالثراء ولا الشُهره، بل يرغب فقط بالابتعاد عن ذاك العالم، ربما لهذا السبب قرر دراسة البرمجيات كوسيلة تُساعده على جني الأموال بسُرعة، وربما سيعمل وحيدًا تحت زعامة نفسه حتى لا يضطر الاختلاط مع أحدهم.

توُقفت يداه عند ورقة مطوِّية مُتدثرة بين كُتبه الدراسية؛ رفع هذه الورقة قبالة عينيه ليقرأ هذا الإعلان الذي يُشير إلى رحلة جامعية بأحد المناطق الصحراوية مع وجود عروضٍ للرقص والغناء وشوي تلك الحلوة المطاطية البيضاء، ناهيك عن التمتع بأجواء السفاري وركوب الدراجات.

رحلة بمثابة كنزٌ ثمينٌ بالنسبة لطُلاب الجامعة خاصة وأن سعرها لا يتعدى بضعة جُنيهات، لكن بالنسبة له، لا يجد أية أهمية من تلك الرحلة التي سيرفضها كما يفعل مع جميع الرحلات.

ألقى بهذه الورقة على المكتب الخاص به ثم حمَّل حقيبته استعدادًا لترك المنزل وبدء العد التنازلي حتى ينتهي هذا اليوم، لكنه ما إن فتح الباب حتى داهمته ابتسامة عريضة سمجة بالنسبة له، فهذه هي شقيقته الصُغرى فرحة، وإن كان يوجد مسابقة بينها وبين الذبابة في الإزعاج، لما ربحت هي وحصلت على لقب أكثر الفتيات إزعاجًا.

-فخورة حبيب قلبي.... أنا عارفة إن إنت هتنفذلي الطلب إللي أنا عايزاه

أغلق فخر عينيه بنفاد صبرٍ وداخله يُناجي ربه حتى يُخلصه من هذه الثرثارة، حاول إبعادها عن طريقه وهو يقول بإصرار:

-لأ يا فرحة ... مش هعمل كدة .... وقولتلك الكلام ده مليون مرة

تلاشت بسمة فرحة وحلَّ محلها الخُذلان وهي تقول بالحاحٍ طفولي مُصطنع:

-يا فخر بقى عشان خاطري .... ده هو لايف واحد بس ... هتقول فيه لجمهوري إن انت خطيبي وأنا أوّعدك إني مش هطلب منك حاجة تاني

دفعها فخر بعيدًا عنه ليواصل سيره اتجاه حُجرة الطعام وهو يقول بغلظة:

-قولت لأ ... وابعدي عن وشي عشان مش فايقلِك

ابتعد عنها بضعة أمتارٍ تجاهل معهم زمجرتها وضربها على الأرض بقدمها:

-على فكرة إنت أخ مش جدع ... وأنا أساسًا مش محتاجاك...

أخرجت هاتفها فورًا حتى تثبت له أنها قادرة على مواصلة أحلامها والحديث مع جمهورها العريض الذي لا يتعدي العشرون شخصًا، فسرعان ما بدّلت زمجرتها بابتسامة مُصطنعة قالت معها:

-إزيكو يا حلويين .... أنا أسفة إني اتأخرت عليكم بس إنتو عارفين بقى ... حماتي جاية انهاردة ولازم اعملها الغدا وانضف الشقة و....

واصلت السير وهي تتحدث مع جمهورها الوهمي أمام فخر الذي بدأ يضرب كفًا بالآخر محوٌقلًا على حالة شقيقته التي سخر منها:

-أموت واعرف مين إللي سماكي فرحة ؟... كان المفروض يسموكي هبلة

فتح البراد لينتشل منه عُلبة الجُبن الأصفر ووعاء المُربى، ثم يضعهم على الطاولة ويبدأ بإعداد بعض الشطائر لنفسه كما يفعل دائمًا، فلا أحد يطهو له الطعام، ولا يُحب حتى أن يتدخل أحدهم فيما يأكله، بل ويرفض أيضًا تناول الطعام الذي تطهوه والدته حتى لا يتعلق به ويتنحّى عن فكرة الرحيل عن المنزل.

وضع سماعة الرأس ليُغطي بها أذنيه ويغرق في نغمات تلك الموسيقى الكلاسيكية الهادئة التي يُحبها والتي تجعله ينفصل عن الضجيج الذي يُحاوط هذا المنزل، فوالداه لا يكفان عن الشجار على من قام بوُضع الملابس البيضاء مع الملابس الملونة، ومن لطخ أرضية المرحاض التي أنهكت والدته نفسها حتى تُنظفها وغيرها من الأمور الروتينية الساذجة التي سئِم منها ودائمًا ما يرغب بالانفصال عنها والغرق في عالمه الخاص.

لكن هذه المرة، وجد الضجيج ينتقل إلى حُجرة الطعام مع نظرات والدته الحانقة التي تضجر من تصرفاته وترى دائمًا أنه شخصٌ لا مبالي وأنها نادمة على إنجابه.

-فخر ... يا فخر...

نادته والدته بصوٌت مُرتفع جعله يكبت زفرته وينزع سماعة الرأس عن أذنه على أمل الاستماع لأوامر والدته:

-وإنت راجع من الجامعة عدّي على الجزار وهاتلنا اتنين كيلو لحمة عشان نعملهم للضيوف

قطٌب فخر حاجبيه وهو يسأل بفضول:

-ضيوف مين ؟

استدارت والدته وبدأت تجلٌي الصحون وهي تُجيبه:

-ولاد خالتك معزومين على الغدا ... وإنت لازم تكون معانا ... أنا عزمتهم يوم الجُمعة عشان عارفة إن معندكش جامعة

شعر أنه سيبصق الطعام من جوفه إثر استماعه لتلك الكلمات، فهو لا يكره بحياته سوى شيئين لا ثالث لهما، أولًا، البشر، وثانيًا، أبناء خالته، فهو لا يحتسبهم من البشر، بل هُم كائنات لزجة لا تعرف شيئًا سوى التوٌغل بحياة الأخرين والعبث بممتلكاته، لا يزال يذكر آخر زيارة لهم عندما كانت ابنة خالته تسعى بشتى الطُرق لهدم حصون قلبه كما لو كانت أميرة جميلة، وهي في الحقيقة لا تختلف عن الضفادع، بل حتى تشبيهها بالضفادع يُعد ظُلمًا لهم، لا يزال يذكر أيضًا ابن خالته الصغير ذو العشرة أعوامٍ والذي لا يتوٌقف عن الصراخ والهرولة وكأنه داخل سباقٍ للركض.

هو لن يتحمل هذا الضجيج مُجددًا، ولن يتحمل مزيدًا من عبثهم مرة أخرى، أي أنه الآن يجب أن يعثر على حُجة حتى يتهرّب من تلك العزيمة، تلك الحُجة جعلت أفكاره تنحضر إلى شيءٍ واحدٍ فقط لا يوجد حلٌ غيره.

-لأ يا ماما مش هينفع .... أنااا ... للأسف مش هكون فاضي

قالها بأسفٍ زائفٍ جعل والدته تترك الصحون وتلتفت له بعوالم مُتجمهرة:

-هو إيه إللي مش فاضي ؟... دا أنا قايلالهم إنك هتكون موجود

بدأ الارتباك يطغي على وجه فخر وهو يثب عن المقعد متفوّهًا بتقرير:

-أصل أنااا... اشتركت في الرحلة....

____

-بتهزري !!... إنتِ عملتي كدة بجد!!

خرجت تلك الكلمات المُندهشة من فتاةٍ يافعة تبدو بمُقتبل العشرين داخل هذه الجامعة العريقة بكُلية الهندسة، تلك الكلمات توّجهت لفتاة يصل طولها لمئة وسبعون سنتي مما يجعلها ذات جسدٍ ممشوقٍ جذابٍ زينته تلك العينان القُرمزيتان وذاك الشعر المُسترسل ذو الخُصلات الذهبية والذي يجعلك تتأكد أنها تنحضر من عائلة ميسورة الحال، لكنها ليست ثرية، فلا يوجد الكثير من الأثرياء بتلك الجامعة الحكومية العريقة، وهذا ما يجعلها مُتميزة لأنها استطاعت بذكاءها وفطنتها أن تتخطى مراحل الثانوية وتحصل على مجموعٍ يؤهلها لكلية الهندسة تحديدًا، الهندسة المعمارية.

-أيوة يا بنتي ... أومل إنتِ فاكرة إيه ؟... دا عيل عبيط أساسًا، أما صدق لاقى لعبة يشبط فيها ... بس أنا علِمت عليه وخليته ميعرفش يشيل وشه عن الأرض أبدًا

قالتها ميادة وهي تداعب خُصلات شعرها بفخرٍ أثناء حديثها عن ذاك الفتى الذي قامت بنشر صوُره مع فتاة ألصقتهما سويًا كما لو كانت تلعب بالبشر وكأنهم حفنة من الدُمى، فتحطيم الآخرين، هي مُتعة بالنسبة لها.

واصلت ميادة السير مع رفيقاتها حتى سألتها أحلام:

-بقولك يا دودو ... إنتِ أكيد جاية الرحلة مش كدة ... أنا عملت حسابك وأنا بدفع

رسمت ميادة بسمة ماكرة على ثغرها وهي تقول بثقة:

-شور يا بيبي ... أنا جاية وش ... وهخلي قريبتي كمان تيجي معايا بدل ما هي قاعدة في البيت كدة....

استمر الحديث بينهن عن تلك الرحلة حتى توقفت ميادة عن الثرثرة ما إن وجدت تلك الفتاة ذات الحِجاب الرياضي والملابس المُهترئة الواسعة الأقرب لملابس الرجال، ناهيك عن نظارتها العريضة وكُتبها التي لا تتركهم من بين يديها.

رسمت ميادة بسمة ماكرة على ثغرها كما لو كانت أمام لُعبتها ومصدر تسليتها، تركت صديقاتها وتحركت صوُب هذه الفتاة المدعوة بشيماء:

-صحيح يا بنات ... هو إنتو عارفين الرجالة بتدفع تذاكر الرحلة فين ؟

وجُهت نظراتها المُزدرئة نحو شيماء وهي تواصل الحديث باشمئزاز:

-أصلي عارفة واحد مش عارف خالص يدفع التذكرة

أخذت شيماء نفسًا عميقًا ثم أطلقته في محاولة جاهدة للتركيز على كُتبها الدراسية وتجاهل هذه الشيطانة على أمل أن تتركها وشأنها، لكن صمتها ما كان سوى دافع لميادة بأن تواصل إثارة حنقها بكلماتها:

-ولا إنت إيه رأيك يا .. شوقي

قالت تلك الكلمات وهي تضرب شيماء على كتفها لتجعل النيران تتدفق بعينيها مما يدفعها للتنُّحي عن ثوّب الهدوء وارتداء ثوّب الضغينة بكلماتها التي بدت مُهذبة رغبة في عدم تصعيد الأمور:

-ممكن تسيبيني في حالي ... أظن أنا مجيتش جنبِك عشان تعملي كدة

قهقهت ميادة بميوعة دفعت صديقاتها للقهقهة معها ومعاونتها على السُخرية من شيماء كما يفعلن دائمًا:

-ولو مسبتكيش يا عنيا هتعملي إيه ؟.... هتكلمي أبوكي من تُربته ؟

أنهت حديثها بدماءٍ باردة لا تشعر بتلك الدموع التي تجمعت على أعين شيماء بتذكرها لوالدها العزيز الذي تُوفي منذ عامين وهي ترتدي تلك الملابس مثل والدها الذي مثُّل لها الكثير بحياتها.

أطبقت شيماء على شفتيها كمحاولة لكبح دموعها وهي تترك المقعد وتبتعد عنهن بخطواتٍ سريعة ونيرانٍ تنبعث من أذنيها، وما كان من ميادة سوى أنها واصلت القهقهة بسُخرية واستهزاءٍ من تلك الفتاة التي تتعمد مضايقتها والسُخرية منها دائمًا.

ما إن رحلت شمياء حتى جلست كنزي بجوار ميادة، وكانت عوالم الشفقة تلوح على وجهها وهي تقول:

-حرام عليكي ... إنتِ كدة بتعايريها بأبوها إللي مات

رفعت ميادة كتفيها بلامبالاة أرجعت معها جسدها للوراء متفوّهة:

-سيبِك منها....

____

-مش هسبني منها .... وأعلم ما في خيلك تركبه ... البت دي هعلقها انهاردة قبل بُكرة، وأدي رقبتي أهي

لم تخلو تلك الكلمات من الثقة والتحدي الذي اعتاد عليهما باسم، أحد أشهر فتيان تلك الجامعة، فهو ببشرته البيضاء وعينيه العسلية وجسده الرياضي المتناسق، استطاع بمهارة أن يجذب النساء ويصطادهن كما يُصطاد الغزلان، مُستخدمًا في ذلك فطنته وذكاءه ومُكره الأشبه بمُكر الثعالب، كان يقف مع صديقيه أمجد ومُحي يتناقشون عن هذه الفتاة ذات الشعر الغجري والأعين البُنية والوجه المُستدير ذو اللمحة الأسيوية.

وكأي فتاة تأتي تلك الجامعة، يجب أن يتعرف عليها باسم ويأخذ رقم هاتفها على أمل أن يضعها في قائمة عشيقاته فيما بعد.

وبما أنها فتاةٌ جديدةٌ لا تفقه شيئًا بهذا القسم الذي قامت بالتحوُّيل إليه، فهذه كانت الفُرصة لباسم بأن يظهر أمامها بمظهر البطل الذي سينتشلها من غياهب التيه ويُغرقها في بحور المعرفة، خاصة بمجال الهندسة الميكانيكية.

نصب قامته وهو يتقدم نحوها بخطواتٍ واثقة وعقلٍ يُردد تعليماتٍ اعتاد السير عليها، والخطوة الأولى بتلك التعليمات : إعرض عليها خدمة، فإن رفضتها، تقبَّل رفضها بوجهٍ حسنٍ ولا تُشعرها أنك تُريد إيقاعها.

-إنتِ جديدة ... مش كدة ؟

بدأ باسم بهذا السؤال الافتتاحي حتى يجعلها تنتبه لوجوده، فما إن أدلى تلك الكلمات حتى وجدها تلتفت نحوه ببسمة هادئة على ثغرها مع إيماءة بسيطة جعلت قلبه يطمئن، فتلك الابتسامة هي دليلٌ على انفتاحها وعدم انزعاجها من الجنس الآخر.

-أنا باسم ... معاكي في الدُفعة .... وممكن اساعدِك تطلعي المُدرج

ظنَّت هذه المسكينة أنه يحاول انتشالها من تيهها مما جعلها تبتسم له بلهفة قالت معها:

-بجد !! ... ميرسي أوي ... أصلهم قالولي إن المحاضرة في قاعة 118 وأنا معرفش القاعة دي فين

اتسعت بسمته أكثر حتى بات المُكر طاغيًا رغم تغطيته بقناعٍ من البطولية أثناء قوله:

-بس كدة ! ... تعالي معايا وأنا أوريكي القاعة فين .... صحيح، احنا متعرفناش

قالها بوُدٍ ليجدها تبتسم وهي تُجيب ببعض الخجل:

-أنا كارين....

_____

-أه يا عم .... البت مخادتش منك غلوة

قالها مُحي وهو يُربت على كتِف باسم الذي قصٌ عليهم كيف استطاع أن يبادل أرقام الهواتف ما بينه وبين هذه الفتاة ذات الشعر الغجري والتي علِمت كذلك أنه من أوائل الصف وأنه يتمتع بذكاءٍ وفطنة عالية.

آعاد باسم ظهره للوراء وهو يقول بفخر:

-أومل إنت فاكر إيه ... مش قولتلك هوّقعها النهاردة

قطع حديثهم أقدام المُعلم وهو يدخل المُدرج ببطنه الممتدة أمامه وكأنه التهم طفلًا، كما أن نظراته المهيبة الحانقة ألزمت جميع الطُلاب بالتزام الصمت حتى لا يُهددهم هذا المُعلم بالرسوب.

همس أمجد بأذن باسم برجاء:

-ساعدني الله يخليك .... دكتور حامد مبيرحمش، ولو شيلت الامتحان ده مش بعيد يشيلني امتحان آخر السنة

ربت باسم على كتفه ليُطمئنه:

-متقلقش يا زميلي أنا في ضهرك ... وكدة كدة الامتحان ...MCQ يعني هنعرف نغش

اقترب باسم بجذعه صوّب أمجد متكئًا على حروف كلماته:

-بس ركز في إللي هقوله ... لو خبط بالقلم خبطة ... يبقى الإجابة ألف... خبطتين ... يبقى الإجابة ب .... تلات خبطات يبقى الإجابة جيم ... وأربع خبطات هتبقى الإجابة دال ... اتفقنا ؟

أومأ أمجد برأسه تزامنًا مع صياح المُعلم بأن يتحلُّوا بالصمت حتى يبدأ بتوزيع أوراق الاختبار عليهم، فما إن حصل باسم على ورقة الاختبار حتى بدأ بحلها بسُرعة وسلاسة كما لو كانت اختبارًا للأطفال، بينما يجلس صديقه متبلمًا أمام ورقة الاختبار لا يعرف ما يفعل، يشعر أنه في نهاية المطاف سيضحى مسئولًا عن عربة فولٍ ويستخدم شهاداته كأوراقٍ لتصفية الزيت.

انتشله باسم من هذا التبلم أخيرًا عندما أوقف القلم وأظهره أمام أمجد الذي تحفزت حواسه وأمسك قلمه استعدادًا لنقل الإجابات دون ملاحظة المُعلم، حيث طرق باسم بهدوءٍ طرقتين ترجمهما أمجد بالإجابة باء، ثم طرق طرقة واحدة تم ترجمتها إلى الإجابة ألف، هكذا واصل باسم الطرق بهدوءٍ وصوُت يكاد يكون مسموعًا حتى لا يُلاحظ المُعلم، فما يراه المُعلم هو شابٌ يطرق على الطاولة، ليس شابًا يحاول مساعدة زميله في حلّ الاختبار بالغش!!

انتهى الاختبار أخيرًا ولم يتوقف أمجد عن شُكره على تلك الخدمة واعدًا إياه بأنه سيُنفذ أي طلبٍ يطلبه منه، وما كان هذا الطلب سوى...

-وعشان إنت وجبُت معايا ... فانا إللي هدفعلك تذكرة الرحلة بتاعت الجامعة

اتسعت بسمة باسم وهو يوميء برأسه موافقًا ليُحاوط صديقه بذراعه ويبدأا السير برُدهة الجامعة مُتحدثين عن هذه الرحلة وعن المتعة التي سيتعرضوا لها.....

———————————————————————

عيناها مُنصبتان على هذا الكتاب الدراسي تُحاول اعتصار ما تبقى من قُدراتها الذهنية حتى تستطيع حلّ هذه المسائل والانتهاء من فروضها الجامعية حتى تُعطيهم لإبنة خالتها كي تُسلمهم بالنيابة عنها، فهي لا تذهب إلى الجامعة ودائمًا ما تأخذ محاضراتها من ابنة خالتها التي تُشاركها القسم نفسه والجامعة ذاتها.

قطع وصلة انغماسها رعشة بسيطة اغتابت أضواء الحُجرة وجعلتها تُصاب بالتشتت؛ تركت كتابها وابتعدت عنه بضعة أمتارٍ حتى ترى سبب هذه الرعشة التي كان مصدرها الإنارة، فيبدو أنها بحاجة لتحريكها وضبطها.

وثبت لارا عن مقعدها وبدأت تتحرك بجسدها النحيل الذي جمّله بشرتها البيضاء وعينيها البُندقية الواسعة مع شعرها المموج المائل للحُمرة، بدأت تتحرك بخطواتٍ هادئة قُرب هذا المصباح وداخلها رغبة بإصلاحه، لكنها توُقفت فجأة لتُذكر نفسها أنها لا تستطيع فعل ذلك، وربما تُصيبها صاعقة كهربائية في محاولة منها لضبط المُصباح.

فكّرت في طلب المساعدة من والدها لكن أفكارها السوداوية أوهمتها أن والدها قد يتعرض للأذى وهو يقوم بتصليح الإنارة وكأنه سيقوم بتصليح بُرج الكهرباء.

انتهت أفكارها بالعودة مُجددًا إلى مكتبها مُقررة أن تواصل مذاكرتها وتجاهل تلك الرعشة، أو ربما ستنقل موقع مذاكرتها إلى البهو، لكنها حتى لم تجد الفُرصة لفعل ذلك بسبب جرس المنزل الذي أخذ يصدح بصورة تكرارية جعلتها تقطع مذاكرتها وتتجه صوّب الباب عندما اقتحم شقيقها الصغير حُجرتها متفوّهًا:

-لارا ... ميادة عايزاكي

كانت ميادة تجلس بالبهو تتحدث مع خالتها حينما أتت لارا من الداخل لتتركهما والدتها وتتجه صوّب حُجرة الطعام لتُعد لهما مشروبًا باردًا، جلست لارا على الأريكة تطمئن أولًا على أحوال ميادة وتتسامر معها في مواضيع مُختلفة قطعتها ميادة بقولها الجاد:

-طبعًا إنتِ عارفة أنا جاية ليه....

أطلقت لارا تنهيدة حارقة من جوفها وهي تتذكر هذا الموضوع الذي أتت ميادة من أجله، فبالطبع ستقوم بإقناعها بالذهاب إلى تلك الرحلة وهي لا تريد ذلك، بل تُريد ذلك لكن هناك شيئًا يدفعها للرفض دائمًا.

-أيوة عارفة .... وأنا قولتلك مليون مرة إني مش هروح

تعرف ميادة إجابتها جيدًا لكن هذا لن يمنعها من الإلحاح عليها لعلها تستطيع استمالتها هذه المرة، فكانت تتقدم بجذعها وهي تقول برجاء:

-وليه مش عايزة تروحي ؟ .... إحنا هننبسط أوي ... الدُفعة كلها رايحة

أصرَّت لارا على قرارها مُعللة:

-وأنا مش عايزة أروح يا ستي ... إفرضي عملنا حادثة وإحنا رايحين ... إفرضي واحنا في الطريق لقينا عصابة هجمت علينا وسرقتنا وضربُتنا بالنار ؟

قطَّبت ميادة حاجبيها بسُخرية قالت معها:

-إيه جو الأفلام الهندي ده !.... وبعدين إحنا مش أول جامعة تعمل كامب في الصحرا ... اشمعنا بقى على حظنا ويطلعلنا سطو مُسلح واحنا رايحين ؟

لم تؤثر تلك الكلمات على لارا التي بدأت ترتجف وهي تُفكر في العواقب التي من الممكن أن تُداهمها بسبب هذه الرحلة، فهي بالأساس لا تذهب إلى الجامعة خوفًا من أن تتعرض لأية حادثة تؤدي بحياتها إذا تركت المنزل.

-لأ مليش دعوة ... أنا خايفة ومش عايزة أروح الرحلة دي

قالتها لارا بإصرارٍ ربطت معه ذراعيها وأنكست معه رأسها لأسفل؛ اقتربت ميادة نحوها على أمل إقناعها مرة أخرى لعلها تُساعدها على الخروج من تلك الثكنة التي تختبيء بداخلها، وضعت أناملها على كتِف لارا وشرعت تُحركها وهي تقول:

-يا لارا بقى متبقيش غلسة .... الرحلة دي بس وأنا اوعدِك مش هخليكي تطلعي معانا رحلات تاني....

واصلت إلحاحها وتحريكها للارا التي اضجرت من تصرفاتها وطفقت تقول بإصرارٍ حمل معه بعض الغضب:

-قولتلك يا ميادة مش هروح .... أنا مش هروح الرحلة دي ... وقفلي بقى على الموضوع ده.....

-هـ...هو ممكن يحصل حاجة واحنا في الطريق ؟

قالتها لارا بارتجافٍ وهي تجلس داخل الحافلة بجوار ميادة التي كانت تشعر بالفخر لنجاحها بتلك المُهمة وإقناعها للارا بالذهاب معها إلى تلك الرحلة الجامعية، أما عن لارا، فكانت تسب نفسها كلما داهمتها أحد المطبات التي تتسبب بارتفاع الحافلة وهبوطها بسرعة مسببة في ذلك ارتجافة بفؤادها، وضعت ميادة أناملها على يد لارا الباردة لعلها تُطمئنها:

-متقلقيش ... مفيش حاجة هتحصل ... ويلا فُكي بقى شوية

قالتها لتلتفت مجددًا صوّب رفيقاتها وتبدأ بالتصفيق والغناء معهن بينما كانت لارا لا تتوقف عن ترتيل الأدعية ومحاولة التخفيف من ضربات قلبها المتصاعدة وعقلها الذي لا يتوقف عن ترويعها بتلك الأفكار السوداوية التي تُخبرها أنها إن نجت من الطريق فإنها لن تنجو من الرحلة نفسها....

انتشرت الموسيقى الصخبة في كل مكانٍ بتلك الصحراء المُعتمة التي لم يُنيرها سوى شُعلاتٍ من النيران وبعض الكشافات، فقد كان الصباح مُفعمًا بالمغامرة والحيوية من التزلج على الرمال إلى حرب الألوان والعديد من الألعاب، أما في المساء تحديدًا بالحادية عشر مساءً، تبدأ فقرتهم الثانية المُتلخصة في الرقص على الموسيقى الصخبة وشواء تلك الحلوة المطاطية البيضاء على أمل أن تنتهي رحلتهم بأحاديث هادئة داخل حلقة أمام شُعلة من النيران.

شاركت ميادة بتلك الرقصات المجنونة وطفقت تتقافز مع رفيقاتها بجنونٍ جعل خُصلات شعرها الذهبية تتطاير حولها، وكان باسم في حلقة الرجال يمُارس عليهم مهاراته المُتعلقة بالرقص والجميع يُصفق وراءه ويُقلده أو ربما يتحداه، أما عن فخر، فكان منزوٍ في بُقعة بعيدة في الصحراء الجرداء يضع سماعة الرأس على أذنه لعلها تُغطي على تلك الموسيقى الصخبة التي يمقتها، فهو من مُحبي الموسيقى والأغاني الكلاسيكية كما أنه لا يُحب هذه التجمعات ويشمئز من الجميع.

وكانت لارا تجلس على صخرة قريبة من حلقة السيدات تفرك أصابعها في توترٍ حاولت معه حجب ارتجافة جسدها عن الظهور وفضحها أمام الجميع.

اقتربت ميادة نحوها وحاولت جذبها لتُشاركهن الرقص بقولها المُشجع:

-يلا يا لارا قومي

جذبت لارا ذراعها نحوها مانعة ميادة من تنفيذ رغبتها مُعللة بصوٍتٍ مُرتجف:

-للـ..لأ ... أنا مش عايزة أرقص ... أنا ممكن وأنا برقص اتكعبل وأقع على النار دي فتمسك في هدومي وتحرقني

لم تتعجب ميادة من أفكارها السوداوية التي آبت أن تجعلها تنتصر هذه المرة وهذا ما دفعها لجذب لارا مرة أخرى صوٌب حلقة الرقص لتُساعدها على التغلب من عُقدها:

-نار إيه دي اللي هتمسك فيكي ... يلا يا لارا بلاش هبل

آبت لارا أن تتحرك وبقيت تلح على ميادة أن تتركها وشأنها، فيكفي أنها وافقت على المجيء إلى تلك الرحلة، وما كادت تلح عليها ميادة مرة أخرى حتى أتت أحلام _ صديقة ميادة_ التي آرادت أن تشاركهن ميادة الرقص وألا تُفكِّر بابنة خالتها التي لا يعلمن سبب انشغال ميادة بها.

-يلا يا دودو ... سيبِك من قريبتِك الجبانة دي وتعالي ارقصي معانا

انصدمت ميادة من حديث صديقتها وكادت توُبخها على سُخريتها من ابنة خالتها إلى أن لارا لم تستطع مشاهدة توُبيخها وقررت أن ترحل بعيدًا حتى لا يراها أحدهم وهي تنخرط بالبكاء.

تلألأت الدموع بين حدقتيها وهي تهرول بعيدًا عن حلقة النساء وتهرول ميادة وراءها بعد أن ألقط نظرة نارية متوُعدة صوُب أحلام التي تجاوزت الحد هذه المرة.

-لارا ... لارا استني...

لم تتوقف ميادة عن تلك الكلمات وهي تُهرول خلف لارا التي لا تعرف أي وجهة تسلكها، فقط تُريد الهرب بعيدًا حتى تنتهي تلك الرحلة وتعود إلى المنزل.

استطاعت ميادة في النهاية أن تجذب لارا من مرفقها وتوُقفها عن السير حتى تلتفت لها وتستطيع الاعتذار منها عما حدث، لكنها وجدت لارا تنفجر بوجهها بدموع تتكوُم على عينيها:

-عايزة إيه ؟.... ما تروحي لصُحابِك ... أنا مش عارفة إنتِ ليه جبتيني هنا أصلًا

حاولت ميادة التهدئة من روعها بكلماتها:

-يا لارا أنا كُنت عايزاكي تتبسطي ... الحق عليا يعني إني عايزة أقضي وقت حلو معاكي

تحشرج صوُت لارا وهي تصرخ بوجهها الأحمر:

-وإنتِ مين قالِك إني هبقى مبسوطة وأنا هنا ؟

تنحُّت ميادة عن هدوئها أمام صُراخ لارا الذي دفعها للصُراخ هي الأخرى:

-وإنتِ عاجبِك نفسِك وإنت قافلة على نفسِك الباب وخايفة من خيالِك

-أيوة أنا مبسوطة وأنا كدة ... ومحدش ليه حق إنه يتدخل في حياتي

أطلق فخر زفراتٍ حارقة وهو يُتابع هذا الشجار الدائر أمامه من هذين الفتاتين اللتان اقتحمتا خلوُته وأصابتاه بالضجر، فصوُتهما بالنسبة له يُشبه صوُت ناظرة المدرسة وهي تُلقي على الطلاب أوامرها التي لا فائدة منها، وبالإضافة إلى ذلك، كانا سببًا بمنعه من الاستماع إلى موسيقاه الكلاسيكية مما دفعه لنزع سماعة الرأس عن أذنيه والصياح بوجهيهما:

-إنتِ يا أنسة إنتِ وهي .... أظن الصحرا واسعة يعني عشان تتخانقو في مكان تاني بعيد عن هنا.....

———————————————

انتهى من الرقص باكرًا ليرتمي على إحدى الصخور مُنغمسًا بشاشة هاتفه التي تعرض أحد مواقع المعلومات الموثوقة، فهو من أولئك الذين لا يُفوتون الفُرصة ليغترفوا من العلم مهما كان الزمان والمكان، إنما هذه المرة، باتت عوالم وجهه تُحيطها الفضول وهو غارقٌ بتلك المعلومات حتى قطعه أمجد بمرح:

-إيه يا سطا إنت هتقديها قُعاد ولا إيه ؟

تجاهل باسم حديثه وبقيت عيناه تُحدقان بالهاتف حتى أردف بتساؤل:

-ده بيقولو إن في كنز هنا .... وقُريب من المكان إللي احنا فيه

ما إن أدلى باسم تلك الكلمات حتى انفجر أمجد بالضحك بسُخرية تبعها مجيء بقية رفاقهم ليشهدوا على هذا الهُراء الذي يتلوه باسم:

-كنز إيه ياسطا إنت بتصدق الكلام ده بردو .... ما تشوف صاحبك يا عم مُحي ... بيقولك إن فيه كنز

قالها مُلتفتًا لصديقهم الثالث مُحي والذي شاركه الضحك والسُخرية هو ورفاقهم الفتيات وكأن باسم أخبرهم بدُعابة ما.

-يا غبي إنت وهو بقولوكم في تمثال أثري يسوى ملايين موجود في مكان قُريب من هنا

كان الإصرار يُحيط بباسم الذي يصرُّ على إثبات وجهة نظره وفقًا للمعلومات التي قرأها عن تلك الأسطورة، إلى أن أصدقاءه لا يبدو أنهم يرغبون بتصديقه وقرروا أن يواصلوا السُخرية منه ومن هذا الهُراء مما جعل باسم يستشيط غضبًا ويثب عن مقعده هادرًا بإصرار:

-تصدق ياض إنت وهو ... أنا إللي حمار عشان بقول لعيال تافهة زيكم .... أنا هروح أدوِّر على التمثال ... وهوريكم إن كلامي صح....

———————————————————

-هتورينا إيه يا خوية .... فاكر نفسك مين عشان تتشطر على ولايا زيِنا

قالتها ميادة بردحٍ ربطت معه ذراعيها الاثنين وهي تواجه فخر الذي خرج عن صمته وقرر أن يُفجر رأس هاتين المُزعجتين اللتان قطعتا عليه خلوته، بل ويُقللان من شأنه أيضًا.

-اسمعي يا ولية ... أنا مش عايز اتخانق معاكي ... فاتفضلي من هنا احسنلِك

قالها بنظراتٍ غاضبة مصوَّبة نحو ميادة التي حافظت على عنادها وهي تقول باستخفافٍ منه:

-قال اتخانق قال ..... فاكر نفسه جيمس بوند وهو شبه الفرخة المتفحمة

أخذ نفسًا عميقًا أغلق معه عينيه ثم فتحهما في محاولة منه لاستجماع قواه العقلية، قرر أن يوقف الجِدال عند هذه اللحظة ويبحث عن مكانٍ آخرٍ ليقف فيه بعيدًا عن البشر، فكل مرة يتعامل فيها مع أحدهم يتأكد أنه لا يجب أن يُحب البشر أبدًا، فجميعهم كائناتٌ ساذجة تسعى للشِجار وإحداث المُشكلات دون أي داع، وهو لن يغرق في هذا الأمر لذلك قرر أن يفُضها ويرحل دون أن ينبس بالمزيد من الكلمات.

وما كاد يتحرك خطوة أو حتى يرد عليها حتى وجد شابًا متوَّسط القامة رياضي الجسد يقطع طريقه ويحاول التهدئة من هذا الشجار الذي كان يُريد انهاءه.

-صلي على النبي يا أنسة ... صلي على النبي واستهدي بالله ... هو أكيد ندمان وهيعتذر

لم يفهم باسم سبب الشِجار لكنه استنتج أن ميادة عشيقته وأنها أمسكت به مُتلبسًا وهو يخونها مع صديقتها الصدوقة، لا يعلم أن ميادة لا تعرف اسم من تتشاجر معه من الأساس.

أما عن فخر، فكان الغضب قد تملَّك منه وجعله يلعن هذا القرار الذي جعله يأتي تلك الرحلة حتى لا يُقابل أبناء خالته، يقسم أن بقاءه معهم أفضل مئة مرة من تعامله مع أولئك الحُثالة.

كان يدفع باسم بعيدًا عنه باشمئزازٍ قال معه:

-ابعد يا حيوان من قدُامي

تعجب باسم من طريقته الفظة التي حاول التغاضي عنها ومحاولة نيل رضاه مستخدمًا طبيعته الاجتماعية:

-بقى ده جزاتي يعني عشان بحاول اصلح بينكم

هنا تدخلت ميادة لتُصحح حديثه ببعض الاندفاع:

-تصلح بين مين أنا معرفهوش أساسًا .... وبعدين إنت إيه إللي حشرك بينا ؟

وثب باسم أمام فخر يُهندم ملابسه وهو يقول بفخر:

-أنا جاي أدوِّر على الكنز

كان واضحًا أنه ينتهز الفُرصة لعله يحاول استمالتهم كي يُساعدونه على البحث بعد أن تخلُّى عنه أصدقاءه، لكنه ما إن أدلى تلك الجُملة حتى وجد نظرات البلاهة تلوح على ثلاثتهم حتى فخر الذي كان يرغب بالرحيل لكن فضوله جعل قدماه مُتشبثتان بالرمال وعيناه تُحدقان بإبهامٍ نحو باسم الذي لاحظ نظراتهم جيدًا.

-كنز !! ... كنز إيه ؟

قطعت لارا هذا الصمت بذاك السؤال الفضولي الذي زاد باسم ثقة وهو يُجيب:

-الأسطورة بتقول إن في مقبرة قُريبة من هنا مدفون فيها تمثال أثري محدش عِرف يجيبه .... بس العبد لله عرف طريقة عشان يروح بيها المقبرة دي ويجيب التمثال ويبيعه ويكسب فلوس ياما

أحست لارا بشيءٍ خاطيءٍ بحديثه مما دفعها لسؤالٍ:

-هو إنت هتاجر في الآثار ؟

رسم بسمة ساخرة على ثغره وهو يُكذب حديثها:

-أتاجر إيه بس ..... أنا هبعها لواحد بتاع أنتيكات جوة مصر .... ومش هقوله إن عُمرها أكتر من ميت سنة

طالعته مبادة بتفكيرٍ عميقٍ جعلها تسأل بشكٍ:

-طب والأسطورة دي بقى بتحكي عن إيه ؟

كان ينتظر هذا السؤال بفارغ الصبر وهذا ما جعله ينصب قامته وهو يقص عليهم:

-الأسطورة بتقول....

طاف بخياله إلى عالمٍ آخرٍ وهو يقص عليهم تلك الأسطورة، يقص عليهم معالم ذاك العصر الفرعوني حينما انتشر السحرى وأضحى الناس يُصدقون الودع والخُرافات، ومع انتشار الجهل، ظهر ساحرٌ مغوارٌ عُرف عنه الفصاحة والمهارة، فكان يرى ما يحدث بالغد ويُفسر الأحلام بحِرفية واتقان، كان يكشف المستور ويعرف الفرق بين الكاذب والصادق، الخائن والمُخلص.

ونتيجة لمهارة هذا الساحر، قرر أن يتحكم بمصير وحياة البشر من خلال كتابته لألواح القدر التي بامتلاكها يُصبح للإنسان قُدرة على التحكم بالعالم، استخدم الفرعون تلك الألواح بالعبث بأقدار الجميع وإيهامهم أنه الإله الأعظم وأن لا إله غيره، وكان الجميع يركع له بتغيُّبٍ وجهلٍ.

بقيت سُلطة الفرعون طاغية حتى جاء طائرٌ خُرافيٌ يُدعى إنزو وسرِق ألواح القدر من مالكها الأصلي، الإله إنليل_ فرعون البلاد وقتها_ أخذ إنزو تلك الألواح وأخفاها بجبلٍ بالصحراء، ومع اختفاء تلك الألواح، اختل النظام ودبت الفوْضى في الكوْن.

أُسقط الفرعون وقتها وتوّلى الإله تابو الحُكم بعد انتصاره بالمُعركة، بدأ الإله تابو بالبحث عن تلك الألواح قبل أن تسقط بين يدي أحدهم وتُصبح له القُدرة على التحكم بمصير رعيّته، وبعد أن وجد الألواح بعد بحثٍ طويلٍ، قرر أن يُخبئها داخل أحد التماثيل ويضعها داخل مقبرة والده، الإله مردوخ، كما ألقى عليها تعويذة جعلتها مُقترنة بروح والده حتى لا يستطيع أي شخصٍ أن يقترب منها.....

انتهى من سرد الأسطورة أمام نظراتهم التي ازدادت غرابة وحيرة، حتى أنهم لا يعرفوا لمَ استمعوا له من الأساس.

-وإنت بقى عايزنا نصدق الهبل ده مش كدة ؟

قالها فخر بتهكمٍ قبل أن يُقرر الابتعاد والانزواء في بُقعة نائية بعيدًا عن أولئك المجانين، إلى أن باسم أوقف حركته وحاول إقناعه بقوله:

-استنى بس يا شِق ... الأسطورة حقيقية .... وفي عُلماء آثار عملو بحث وقالو إن المقبرة قُريبة من هنا

لاح الاشمئزاز على وجه فخر وهو يُبعد باسم عنه ويقول بتوبيخ:

-إيدك متجيش ناحيتي تاني إنت فاهم

أومأ باسم برضوخٍ بينما تدخلت ميادة بالحديث بلهفة:

-أنا موافقة آجي معاك .... ولارا هتيجي معانا

بدأت لارا بالارتجاف بجوارها وهي تحاول التهرب من تلك الورطة:

-للـ لأ ... أنا مش هاجي .... الدنيا بليل وممكن يطلعلنا ذئب ولا حاجة ... وممكن نتوه ومنعرفش نرجع تاني

آحاطتها ميادة بذراعها وهي تُطمئنها:

-متخافيش .... هيبقى معانا بوصلة .... وأنا هفضل جنبِك

ازداد ارتجاف لارا التي بدأت تُحرك رأسها باعتراضٍ قالت معه:

-لأ أنا مش موافقة ... أنا خايفة احسن يجرالنا حاجة

ألحُت عليها ميادة رغبة في اجتذابها لمشاركتها تلك المغامرة، وحتى لا تبقى وحيدة مع رجلين.

-يلا يا لارا بقى متبقيش غلسة .... هي كلها ساعة زمن وهنيجي هنا تاني

لازال الرفض طائفًا على وجه لارا حتى أردفت ميادة مُستخدمة آخر محاولاتها للإقناع:

-ولا إنتِ عايزة تفضلي هنا لوحدِك والبنات تغلس عليكي ويرموكي في النار عشان بتخافي منها ؟

جحظت عينا لارا في خوُفٍ ما إن أدلت ميادة تلك الكلمات التي جعلتها تتشبث بذراع ميادة متفوِّهة:

-لأ لأ ... خلاص ... أنا هاجي معاكي

اتسعت بسمة ميادة بانتصارٍ بينما حاول فخر إبعاد باسم عن طريقه حتى لا يضطر للتعامل مع البشر مرة أخرى، لكن باسم آبى أن يجعله يرحل وقرر أن يتمسك به لأنه الوحيد الذي يقف أمامه الآن.

-استنى بس إنت رايح فين .... يعني يرضيك أروح أدوِّر على المقبرة مع اتنين حريم ؟

قالها باسم ببعض الرجاء الذي أحبطه فخر بكلماته الغليظة:

-ما توِّلع إنت وهما ... أنا مالي أصلًا

كاد يرحل مجددًا لولا باسم الذي تشبث بذراعه على أمل إقناعه هذه المرة:

-يا سطا بقولك هنكسب فلوس ياما .... يعني هنبقى أغنية

تلك الجُملة جعلته يتوقف عن السير بالعديد من الأفكار والتخيُلات التي بدأت تطوف حول ذهنه خاصة هذا المنزل الذي يُريد أن يبتاعه ويقطن به وحيدًا، كذلك لم يتوقف

باسم عن الحاحه حتى ارضخ فخر لطلباته وقرر أن يوافق من أجل الأموال التي ربما يجنيها إن صحّت تلك الأسطورة.

-ماشي .... بس طول الطريق لسانك ميخاطبش لساني كأني مش موجود

قالها مُشترطًا قبل أن يبتعد عن باسم الذي ابتسم بانتصارٍ واستدار صوّب ميادة التي أخبرته باسمها كما فعلت لارا، أما عن فخر، فرفض أن يُخبر أحدهم باسمه وقرر أن يسير خلف باسم دون أن ينبس بنت شفة، بل كان يسب نفسه على موافقته على هذا الأمر من البداية....

_____

رياحٌ هاجرة تعصف بهم يصحبها حُبيباتٌ من الرمال تتناثر على وجوههم بسبب تلك الصحراء، وفي جوف هذه العُتمة وبعد مرور أكثر من ساعتين على البحث، بدأت أقدامهم تتشقق وتتقرح وأنفاسهم تنقطع، وعزيمتهم تتناقص، فكل دقيقة تمرُّ عليهم يزداد معها يأسهم ويتبدد أملهم في البحث عن ذاك التمثال.

-بقالنا أكتر من ساعة بندوّر .... إنت متأكد إن التمثال ده هنا ؟

قالتها ميادة بنفاد صبرٍ ليُجيبها باسم وهو يُمعن التحديق بهاتفه الذي يُرشدهم.

-أيوة متأكد ... خلاص قرّبنا ... تعالو ورايا

أسرع من خطواته وهو يتجه صوّب اليمين بعد أن آشار عليهم ليتبعونه، فكان فخر يتحرك وراءه بملٍ ويسب ذاته لأنه وافق على هذا الهُراء، بينما تتشبث لارا بكتفِ ميادة وكأنها والدتها التي تحتمي بها من شرور العالم، وكانت اللهفة تلوح على وجه ميادة لأن التمثال لا يعني لها شيئًا بقدر ما تعنيه تلك المُغامرة.

توقفت أقدام باسم عند كهفٍ حجري تراكمت عليه الأتربة مما جعله جُزءًا من رمال الصحراء، واصل سيره بثقة حتى دلف الكهف بخطواتٍ حذِرة أشعل معها إنارة الهاتف الخاص به ليُخفف من حدة الظلام.

جال بعينيه في كل مكانٍ وهو يتفحص تلك النقوش الفرعونية المُهترئة مع بعض الصخور المترامية على الأرض، كان الذهول يلوح على وجه ميادة ليجعل فكها يسقط لأسفل وهناك رغبة عارمة بداخلها بتصوير ما يحدث لكن الظلام سيُعيق عملية الرؤية، كما أنها لم تأتي للإكتشاف والتقاط الصوُر فحسب.

تسمُر باسم مكانه بأحد أركان الكهف لتُرتسم على ثغره ابتسامة مُنتصرة متلهفة جعلته يقول:

-لقيته

انتبه الجميع لما قاله فهرعوا نحوه بسُرعة ليلحظوا هذا التمثال الذي يتفرّع منه جناحين كبيرين أشبه بجناحي طائرٌ مغوار.

-واو ... هو ده التمثال ؟

قالتها لارا بذهولٍ لم يختلف عن الذهول الذي حاوط الجميع بخلاف باسم الذي آضاف على ذاك الذهول فخرًا واعتزازًا بنفسه وأسطورته التي ثُبت صحتها.

-عشان تصدقو بعد كدة إللي بقوله

قالها باسم بفخرٍ قبل أن يمُد يده نحو التمثال ليُزيح عنه تلك الأتربة قبل أن ينزعه بضعة أمتارٍ عن تلك الصخرة الموضوع عليها.

ما إن أمسك باسم بالتمثال حتى داهمهم هذا الصوت من مصدرٍ لا يعرفونه لكن هذه الكلمات بدأت تضرب نفوسهم بهوادة وهي تقول:

-لقد عبثتم بالقدر .... والآن ستُصيبكم لعنة مردوخ....

الفصل الثاني (شجاعة حتى البلاهة)

هكذا نحن البشر، نُفضل أن نُكذِّب الحقائق لصعوبتها، ونُصدق الأوهام لأنها تجعلنا أسعد.....

تصلَّبت أهدابهم ما إن اخترق حلمة أذنهم هذا الصوْت الجهوري الذي بدا وكأنه نابعًا من أعماق أفئدتهم، بقي باسم مُتشبثًا بالتمثال بعوالم مُبهمة على وجهه وهو يتلفت صوْبهم لتتقابل عينيه العسليتين مع عيني لارا المُرتعبة والتي بدت مُصدقة لتلك الكلمات.

-هـ... هو في لعنة ولا إيه ؟

ارتجفت كلماتها وهي تخرج من جوفها لكن ميادة طمئنتها بتربيتة على كتفها تزامنت مع حديثها الواثق:

-لعنة إيه ! إنتِ مصدقة الكلام ده بردو ؟.... ده تلاقيه مقلب عامله واحد سيس

ثم التفتت نحو باسم لتمُد يدها متفوِّهة بأمر:

-هات التمثال

لم يستجب باسم لأوامرها وبقي مُتشبثًا بالتمثال كما لو كان طفله الرضيع:

-لأ مفيش الكلام ده ... التمثال هيفضل معايا لغاية ما يتباع وفلوسه تتقسم علينا

لاح الغضب على وجه ميادة وهي تقترب نحوه في محاولة لجذب التمثال لأنها لا تثق به:

-وأنا اش ضمنِّي إنك هتدينا حقنا .... مش يمكن تخلع وتلهف الفلوس لوحدِك

-ليه ان شاء الله ... شايفاني واطي ؟

هكذا زمجر بوجهها لترد عليه بتأكيدٍ:

-أه .... وانا اعرفك منين يعني عشان أثق فيك

ضمٌ باسم التمثال نحو صدغه وآحاطه بذراعيه وهو يُحاول انهاء الجدال بإصرار:

-طب عشان الكلمتين دول بقى ..... التمثال هيفضل معايا وأعلم ما خيلك تركبيه....

تحركت أناملها على التمثال المُتدثر داخل حقيبتها حتى لا يظهر للعيان، لا تُصدق أنها انتصرت بتلك المعركة وأصبح التمثال بين يديها في مقابل تخلُّيها عن الهاتف الخاص بها على أن تُعيده حالما يتم بيع التمثال.

تجلس لارا بجوارها داخل الحافلة بعد أن أشرقت شمس يومٍ جديد وحانت اللحظة للعودة، فكانت عيناها تزيغان خارج النافذة تحاول طرد هذه الأفكار السوداوية عن رأسها والتخفيف من حدة ارتجافها حتى تتوقف الحافلة عند وجهتها وتعود إلى منزلها في سلام.

-قوليلي بقى .... هتعملي إيه بالفلوس ؟

سألتها ميادة بحماسٍ أخرجها من دائرة صمتها وجعلها تقول بارتعاد:

-ادعي بس اننا نرجع الأول .... أنا خايفة أوي

كادت الدموع تترقرق من عينيها وهي تتحدث بينما أغلقت ميادة عينيها بنفاد صبرٍ من تصرفات ابنة خالتها التي لا تنتهي، تُفكر بالموت وكأنها بمُنتصف حربٍ دائرة، ودُّت لو أخبرتها عن أولئك الصامدين رغم الخطر الذي يحوم حولهم، لكنها ليست من أولئك الأشخاص الذين ينشرون الحِكم والمواعظ، فكلما حاولت ابداء النصيحة، ينقلب الأمر إلى شجارٍ وعِراك، أو إلى مُزاحٍ وسيل من الدُعابات....

_____

على الجهة الأخرى، كان يجلس فخر بجوار النافذة يستمع إلى الأغاني الكلاسيكية بواسطة سماعة الرأس التي تعزله عن العالم، وكان باسم بجواره بعد أن قرر الجلوس معه ومحاولة التعرف عليه قبل أن يتم تقسيم الأموال بين أربعتهم، ففي النهاية، هو من شاركه البحث عن ذاك التمثال.

أنهى باسم مكالمته الخامسة مع إحدى الصديقات_ أو العشيقات_ ثم التفت نحو فخر الذي لم يكن منتبهًا له ولم يكن يُريد أن يتعرُّف عليه أو يتحدث معه حتى، لاحظ باسم أن فخر يتعمُّد تجاهله باستخدام سماعة الرأس مما جعله يقتحم خلوته وينزع تلك السماعة اللعينة حتى يسمعه فخر.

-يا عم بقى سيبك من الأغاني وركز معانا ... إحنا المفروض يعني شُركا

انطلقت النيران من عيني فخر وهو يُزمجر بغضبٍ عارمٍ وينتشل سماعة رأسه العزيزة من بين يدي هذا السمِج الأشبه بالغراء، فكانت كلماته هادئة متوّعدة لم تخلو من نيران غضبه وهو يقول:

-إيدِك متتمدش ناحيتي

أنهى حديثه بنظرة ثاقبة وأعينٍ جاحظة آعاد معها السماعة إلى أذنيه لكن باسم لم يستسلم وقبض على ذراعه مجددًا وهو يقول بإلحاح:

-طب على الأقل قولّي اسمك إيه .... ما هو مش منطقي يكون في بينا مصلحة ومش عارفين اسمك

أطلق زفرة حارقة من جوفه حمُّلت كمًا من نفاد الصبر والاشمئزاز أثناء قوله:

-اسمي فخر ... وياريت متفتحش بوقك وتعتبرني مش موجود لآخر الطريق

آعاد ظهره للخلف ونصّب عينيه خارج النافذة ليندمج مع تلك الموسيقى الساحرة التي بدأت تطرب أذنيه متجاهلًا نظرات باسم المُتبلمة والمُتعجبة من هيئته الغريبة، لكنه بعد أقل من ثانية، قرر أن يتجاهل هذا الغريب عدو البشرية ويعاود الاتصال بصديقاته ليطمئن عليهم.

-أيوة يا كارميلا .... لأ أنا تمام الحمد لله... وصلتي الجامعة ؟...

____

-أيوة وصلت من بدري ... إنتو فين ؟

قالتها ميادة للهاتف الذي ألصقته على أذنها أثناء اتصالها بباسم وفخر اللذان من المُفترض أن تتقابل معهما أمام متجر الأنتيكات الذي أرسل باسم عنوانه وأخبرهما أن ينتظراه هناك حتى يتم بيع التمثال.

تلفتت ميادة حولها وهي تبحث عن باسم حتى توقفت عينيها عند بُقعة مرادة استطاعت من خلالها رؤية كلًا من باسم وفخر وهما يتقدمان قُرب المتجر.

دلف أربعتهم مِتجر الأنتيكات ذو اللمحة الكلاسيكية والعديد من التماثيل المُتشحة بالأناقة والفخامة، مع بعض قطع الأثاث القديمة والمُقتنيات الفريدة من نوعها، فكأن من يدخل هذا المتجر ملكًا يترعرع على عرش أمجاده وثراواته المُتعددة.

حمحم باسم قبل أن يتقدم بجذعه صوّب البائع متفوّهًا:

-سلام عليكم ... أنا معايا حتة أصلي وعايز ابيعها

رد البائع السلام قبل أن يستفسر عن تلك القطعة الأثرية ويُخرج باسم التمثال بعد أن قام بإزاحة الأتربة من عليه.

جحظت عينا البائع في ذهولٍ وهو يتحسس ذاك التمثال بالعديد من الشكوك حول رأسه، ومن كثرة الشكوك التي بدأت تُساوره أخرج عدسته المُكبرة وبدأ يتفحص التمثال جيدًا حتى تأكد أن عُمره أكثر من ألف عام.

-التمثال ده أثري ؟

سألهم البائع ليتأكد من شكوكه وهذا ما جعل التوتر يكتنفهم حتى لا ينكشف أمرهم ويتم وضع التمثال بالمتحف بدلًا من بيعه وتقسيم الأموال عليهم.

مسُد باسم على عُنقه من الخلف وهو يحاول إخفاء الحقيقة بقوله:

-لأ أثري إيه بس .... بقولك أصلي .... يعني جودة عالية ومواد أصلية مش فشِنك " زائفة"

قطُّب البائع حاجبيه بشكٍ صوُّبه نحوهم ثم عاود فحص التمثال حتى تأكد بالفعل أن عُمره يُقدر بألاف السنين، وضع عدسته المُكبرة جانبًا ثم أرخى ظهره للوراء بعد أو وسوس له الشيطان بأخذ هذا التمثال وبيعه بملايين النقود بدلًا من إيداعه بالمتحف، مما يعني أنه سيتبع تمثيليتهم ويقنع ذاته أن التمثال ليس أثريًا.

50 -ألف دولار

قالها بتقريرٍ كاد يُصيبهم بالفرح لولا تدخل باسم الذي لم يكن راضيًا بهذا المبلغ:

50 -ألف إيه يا رياسة .... بقولك أصلي ... يعني مش هتلاقيه في حتة تانية ... ده التمثال ده يتباع بملايين

فكُر البائع في حديثه لبرهة قبل أن يُنهي الحديث بتقرير:

200 -ألف دولار ومش هزوّد عن كدة

التفت باسم برأسه نحوهم ليتشاور معهم بنظرات عينيه التي جعلته يستشف الرضا بوجوههم، فهذا يعني أن كل واحد منهم سيحصل على مليوني جنيه إذا تم تقسيم المبلغ بينهم بالتساوي، أي لا يزال المبلغ جيدًا.

آعاد نظراته صوٌب البائع ليُبرهن موافقته على هذا المبلغ حتى تتم البيعة ويُعطيهم البائع أموالهم ثم يدعهم يرحلون من المتجر بفراشاتٍ تتراقص بأفئدتهم وتجعلهم يقفزون في سعادة، فهم الآن في عِداد الأغنياء.

توقف أربعتهم أمام المتجر يُهللون في مرح فيما عدا فخر الذي كانت نظراته جامدة مُقتضبة.

-أنا مش مصدقة نفسي ... أنا بقيت غنية

قالتها ميادة بسعادة دعُمها بقيتهم لفترة وجيزة قطعتها لارا بتساؤل:

-هو احنا هنعمل إيه بعد كدة ؟

آجابها فخر بغُلظة قبل أن يُسرع من خطواته نحو سيارته:

-مش هنعمل حاجة .... كل واحد يروح لحال سبيله .... وإياكم تتصلو بيا ولا تكلموني تاني....

هكذا بصق الكلمات بوجوههم وابتعد عنهم راغبًا بعدم مقابلتهم مرة أخرى، كانت ميادة تطالعه بغرابة تمتمت معها:

-هو ماله ده ؟

استأذن بعدها باسم بطريقة ودودة لا تُقارن أبدًا بالطريقة الفظة التي واجههم بها فخر :

-أنا هستأذن بقى ... فُرصة سعيدة، وان شاء الله نتقابل في حاجات تانية

رماهما بابتسامة ودودة قبل أن يرحل ويرحل جميعهم إلى منازلهم ليتنعموا ببعض الراحة جراء هذا اليوم الطويل الذي كانت بدايته البحث عن ذاك التمثال والانتهاء ببيعه والتنعُم بثروُته....

تسللت أشعة الشمس داخل الحُجرة لتجعل هذين الجفنين ينفتحان رويدًا سامحة المجال لهذا الجسد بأن يستقبل يومًا جديدًا مليئًا بالمثابرة والنجاح، أو ربما الروتين والملل.

فرك باسم عينيه ليُمحي أثر النعاس قبل أن يتماطأ ويُزيح الغطاء عن جسده لينسل عن فراشه الأبيض الوثير مُرتديًا نعليه المُريحين ثم يتوجه بعدها إلى المرحاض ليقضي حاجته ويستفيق قليلًا بفعل المياه التي سينثرها على وجهه.

فتح صنبور المياه ومرر فُرشاة أسنانه لتأخذ حمامًا ساخنًا قبل أن يضع عليها المعجون ويفرك بها أسنانه البيضاء، كان من المُفترض أن ينتشل معجون الأسنان لكنه لا يعلم كيف أمسك بدهان الحلاقة ووضع منه فوق فُرشاته قبل أن يضع هذا الخليط داخل فمه ويبدأ الفرك ببساطة.

صُدر صوُت السعال من جوفه ما إن لامس فاهه مِذاق دهان الحلاقة السيء وأدرك فورًا أنه ليس بمعجون الأسنان؛ استمر سعاله لفترة وهو يبصق ما بجوفه ويتغرغر بالمياه حتى يُمحى هذا المِذاق عن جوفه.

كانت عيناه يغمرهما الاشمئزاز الذي تحوّل للإبهام ما إن لاحظ حركته الغبية، هذه أول مرة يرتكب فيها حماقة كهذه ولا يعرف ما به اليوم، فعُلماء النفس يقولون أن البدايات تُحدد ما ستفعله بقية اليوم، فما بالك أن تبدأ يومك بحماقة كهذه!!

ترك المِرحاض وهو يُجفف شعره ويتجه بدوره إلى حُجرة الطعام آملًا بإعداد وجبة الفطور قبل ذهابه إلى الجامعة، فوالديه دائمًا ما يذهبا إلى العمل باكرًا كما يذهب شقيقه إلى وظيفته بأحد البنوك، ويبقى وحيدًا في النهاية مُجبرًا على إطعام نفسه وإلا تضوّر جوعًا.

فتح البراد ليُخرج منه بيضتين ثم انتشل صحنًا أبيضًا ووضعه على الطاولة بجوار حاوية القمامة التي سيُلقي القِشر داخلها، أحدث شِقًا بالبيضة قبل أن يقوم بكسرها وتفريغها من هذا السائل، فعل هذا مع البيضة الأخرى ثم أخذ شوكة وبدأ يُحركهما في الصحن الذي تفاجأ أنه يحتوي على قِشر البيض، فالسائل تم إلقاءه في القمامة.

قطُّب باسم حاجبيه وهو يُراقب هذه الغرابة ثم يُلقي قشر البيض بالقمامة على أن يُعد غيره، فتح باب البراد مرة أخرى وانتشل آخر بيضتين وقام بكسرهما ليجد أنه يكسرهما أمام حاوية القمامة ثم يضع القشر داخل الصحن.

زفر الهواء من فمه بنفاد صبرٍ غمغم معه بصوتٍ مسموع:

-ده إيه ده بقى .... هو في إيه على الصُبح ؟

ترك صحن البيض_ أو قشره_ على الطاولة واتجه نحو البراد مُجددًا لينتشل كِسرة من الخُبز ويُقرر إعداد بعض الشطائر بدلًا من البيض المخفوق، أمسك بكِسرة الخُبز ووضعها فوق المؤقد حتى يقوم بتسخينها والتهامها طازجة، أحضر عود الثقاب وقام بإشعاله وتقريبه من الموقد لكن الرياح هبَّت فجأة وأطفأت عود الثقاب المُشتعل.

زفر باسم بغضب ومرر عود الثُقاب على سطح القدح ليحتك الاثنين وتبدأ شعلة النيران الصغيرة بالانبجاس، لكن ما حدث أن عود الثُقاب _الذي تم إشعاله مُسبقًا_ لم يستجب لهذا الاحتكاك وآبى الاشتعال مُجددًا.

-في إيه يا عم إنت ما أنا ولّعتك قبل كدة

قالها باسم ببلاهة حمَّلت غضبه العارم من عود الثُقاب، قرر بعدها أن يستخدم الفُرن الكهربائي الصغير كطريقة أسرع للتسخين؛ أمسك كِسرة الخبز المُجمدة ووضعها فوق صحنٍ آخرٍ ثم أدخلهم داخل الفرن الكهربائي الصغير وأغلق الجهاز ليبقى مرابضًا أمامه بضع دقائق تغافل معهم عن الضغط على زِر التشغيل.

فتح باسم باب الفُرن وأخرج كِسرة الخُبز آملًا أن تكون طازجة الآن، لكن أمله هوى أرضًا ما إن استشعر تجمُدها؛ أطلق زفرة مليئة بخيبة الأمل ثم آعاد الصحن مُجددًا داخل الفُرن الكهربائي وأغلق الجهاز دون أن يضغط على زر التشغيل أيضًا.

بقي أمام الفُرن لبضع دقائق أخرى انتهت بفتحه للجهاز وإخراجه للصحن بكسرة الخُبز التي لا تزال مُجمدة.

-وبعدين بقى في اليوم ده ... يعني الميكروويف كمان بايظ!!

بصق تلك الكلمات بغضبٍ عارمٍ قبل أن يضع الصحن جانبًا ويُقرر الذهاب إلى الجامعة وتناول فطوره هناك بدلًا من سوء حظه وتلك الغرابة التي علقت به هنا.....

استيقظ فخر في الصباح الباكر على غير العادة، فعادة ما يستيقظ قبل موعد المحاضرة بنصف ساعة فقط لأنه لا يُحب قضاء المزيد من الوقت مع العالم ومع البشر، إلى أنه اليوم، لا يعرف سبب شعوره بالحيوية والبهجة والنشاط كما لو كان رياضيًا حاصلًا على العديد من الميداليات وهو لم يُمارس الرياضة سوى بطفولته وكان يمقتها كل المُقت.

وجد لسانه يُدندن بكلمات أغنية سخيفة بالنسبة له كان قد استمع إليها في مرة من المرات ولا يحفظ حتى كلماتها، يحفظ فقط نغمُتها السعيدة الشبابية التي تختلف تمامًا عن نمط الأغنيات التي يستمع اليها.

فتح الخزانة لينتشل منها ملابسه وهو لا يزال يتغنُّى بتلك الأغنية التي جعلته ينتشل سُترة حمراء زاهية كانت والدته قد ابتاعتها له وهو لم يرتديها ولو مرة في حياته.

انتشل مع هذه السُترة بنطالًا من الجينز الباهت وارتداهما بسعادة لا يعرف من أين تأتيه، لا يذكر أنه أنجز شيئًا أو حقق إنجازًا بالبارحة حتى يستيقظ على تلك الابتسامة الواسعة !! بخلاف الأموال التي حصل عليها والتي لا يظن أنها سبب هذه البهجة.

ترك الحُجرة بحقيبته الجامعية وبسمته التي تُزين ثغره، قطعه صوُت والدته وهي تتشاجر مع والده كالعادة على من ترك التلفاز مفتوحًا ليلة البارحة وهي التي تتكفل بمصاريف المنزل.

-صباح الخير يا ماما ... صباح الخير يا بابا

قالها فخر دون ان ينتبه ثم واصل سيره نحو حُجرة الطعام أمام نظرات والديه اللذان توقفا عن الشِجار وبدأا يرمقانه بإبهامٍ وحيرة، فمُنذ متى وتلك الجُملة خرجت من ابنهما ؟؟

فتح فخر البراد وانتشل وعاء المُربى ليضعه على الطاولة، وكانت شقيقته فرحة تفتح كاميرا الهاتف وتلتقط لنفسها مقطعًا تقول فيه:

-مرات أخوية قالتلي يا بت يا فرحة إنتِ عارفة كيلو الفراخ بقى بكام إزاي عملتي الكمية دي كُلها ... روحت أنا قولتلها....

قطُّب فخر حاجبيه وهو يُشير على نفسه مُغمغمًا:

-مرات أخوية ... هو أنا اتجوّزت إمتى ؟

تجاهل حديثها فيما بعد وجلس أمام الطاولة ليُعد لنفسه بعض الشطائر ويبدأ بالتهامها بهدوءٍ دون أن يضع سماعة رأسه وهذا ما سمح لفرحة بالحديث معه بوُدها الزائف وثرثرتها المُعتادة:

-فخر ... أخيرًا صحيت .... ممكن بقى عشان خاطري تطلع معايا لايف واحد بس ... عشان خاطري...

كادت تواصل إلحاحها ككل يومٍ لكنه قطعها هذه المرة بابتسامة عريضة مُتلهفة قال معها ببساطة:

-موافق .... هنطلع لايف بعد المحاضرة إيه رأيِك ؟

سقط فك فرحة في ذهولٍ من حديثه كما اتسعت حدقتيها وهي تسأله بتشكك:

-إنـ..إنت بتتكلم جد !... .يعني إنت موافق ؟

زادت بسمة فخر وهو يؤكد حديثها بثقة:

-أيوة يا بنتي موافق .... وكان ممكن اطلع لايف دلوقتي بس للأسف عندي جامعة

مرُت بُرهة وجيزة من الصمت وهي لا تتوقف عن التحديق به حتى....

انفجرت ينابيع السعادة بفؤادها مرة واحدة وجعلتها تُصفق وتتقافز بتهليلٍ عبُرت معه عن سعادتها البالغة قبل أن تترك حُجرة الطعام وهي لا تتوقف عن التهليل، لاحظ فخر ما تفوُّه به من حماقة مما جعله يوُبخ ذاته بغمغمة:

-إيه إللي قولته ده ؟.... وبعدين إيه إللي أنا لابسه ده أصلًا ؟

أطلق زفرة حارقة من جوفه قبل أن يُقرر ترك المنزل والاتجاه إلى جامعته قبل أن يجد ذاته أمام الهاتف الخاص بشقيقته يقنع جمهورها أنه فتى أحلامها الذي تزوجته في النهاية، تبًا، حتى تخيُل هذا يُصيبه بالقشعريرة...

واصل سيره حتى ترك البناية ليستمع إلى صوُت حارس العُقار وهو يُلقي عليه السلام ككل مرة، وككل مرة لا يُجيبه فخر ولا يستمع له من الأساس، إلى أن هذه المرة وجد فخر لسانه يردف وحده:

-وعليكم السلام... إزيك يا عم مصلحي وإزي عيالك ؟

لم ينبس مصلحي لبُرهة من الوقت غير مُصدقًا أن هذا الفظ يتحدث معه بلطافة، حتى أنه ظنٌ أن تلك الكلمات التي يستمع إليها ما هي إلا أوهام يختلقها عقله.

-إيه يا عم مصلحي مالك .... ساكت ليه ؟

قالها فخر وهو يتقدم نحوه حتى ردٌ عليه حارس العُقار:

-لا مفيش يا باشا .... أصلها أول مرة يعني اسمع صوت حضرتِك

كان يُريد أن يرحل ويواصل طريقه صوٌب الجامعة، كان يُريد النفور من الجميع ومعاملتهم بغُلظة، لكنه لا يعلم ما الذي يجعله يتحدث بتلك السماجة، لا يعلم ما الذي يدفعه نحو حارس العُقار ويجعل تلك الابتسامة الساذجة تتشكل على ثغره وهو يقول:

-إنت من هنا ورايح مش هتسمع غير صوٌتي ... دا أنا حتى وأنا صغير أمي كانت بتقولي.....

قالها وهو يجذب المقعد ويجلس بجوار حارس العِقار متغافلًا عن جامعته وراغبًا بالحديث عن حياته التي عمِل جاهدًا حتى تبقى غامضة لا يعرف عنها أحد....

بعد مرور ساعة من الزمن، لم يتوقف فخر عن الحديث ولو لثانية واحدة حتى أحضر له مصلحي قدحًا من الشاي وكان يتفاعل معه مع طفولته وحياته التي يتحدث عنها فخر كما لو أن حارس العِقار هو صديقه الصدوق.

-وبس كدة ... شوفت بقى يا عم مصلحي ... الحياة صعبة أوي

أرخى مصلحي ظهره للوراء وهو يرتشف رشفة من الشاي ويردف مُبديًا رأيه:

-معاك حق والله ... بس متأخذنيش يعني ... حضرتك بردك إللي غلطان ... مكنش لازم تديها الآمان بسُرعة كدة، كان لازم تسأل عنها الأول

ارتشف فخر رشفة من شايه وهو يؤكد حديثه:

-منا فعلًا هبقى اعمل كدة مع أي واحدة هتعرف عليها

بعد فترة وجيزة من الصمت تذكٌر مصلحي بعض الأعمال التي جعلته يسأل:

-تحب حضرتك أطوألك " أنظف " العربية ؟

نفى فخر برأسه وهو يرتشف شايه ويقول:

-لا لما ارجع من الجامعة

-طب حضرتك هترجع من الجامعة امتى ؟

هكذا سأله مصلحي ليُنظم جدول أعماله ويُعد قائمة بالمهام التي عليه القيام بها كما لو كان مدُيرًا للأعمال، وكانت كلماته تذكرة لفخر حتى يرى ساعة هاتفه ويُخبره ببساطة أنه سيعود من الجامعة بعد انتهاء محاضرته.

-أنا هرجع الساعة_

بتر كلماته ليفتر فاهه بصدمة ما إن لاحظ تأخره نصف ساعة عن محاضرته؛ ترك كوب الشاي على الطاولة قبل أن ينتفض في جلسته ويبدأ الهرولة أثناء قوله:

-المحاضـــرة!!!

____

تجوّلت أقدام ميادة داخل الجامعة وسط الأزهار الذابلة والحشائش الميتة بسبب عدم الاعتناء بها، ترابط ذراعها مع أحلام صديقتها التي لم تتوقف عن الحديث عن كل شخصٍ وطأت أقدامه تلك الجامعة كما لو كانت تتحدث عن عُظماء التاريخ في الإجرام والوضاعة، فلا أحد ممن ذكرتهم كان يحمل صفة حسنة ولو واحدة فقط، جميعهم أما يخونون أو يسرقون أو يبصقون على المارة، أو ربما لا يفعلون شيئًا وهي التي تختلق سيئاتهم.

لم تُبدِ ميادة ردود الفعل المتوّقعة وكانت عينيها تُنذران بالضيق الذي لا تعلم سببه، بل هي منذ الصباح وهي تشعر برغبة جامحة بالبكاء والبقاء على فراشها طوال اليوم تستنزف المحارم في محو مُخاطها ودموعها.

-راحت قايلاله إنها هتسيبه ومش هتعبره تاني

هكذا أنهت أحلام حديثها باندفاع عن تلك الفتاة التي انتقمت من خطيبها الذي حطمُها ولم يبتاع لها الحلوة المطاطية المُفضلة لديها، مع بعض الإضافات التي أضافتها أحلام حتى تجعل القصة الحقيقية الساذجة قصة مليئة بالإثارة والتشويق كإضافة أن الفتاة مريضة سُكر وأن الحلوة التي أعطاها إياها بدلًا من حلواها المُفضلة جعلتها تسقط في غيبوبة سُكر ليومين، لتفيق منها وتكتشف أن خطيبها الحقير كان يتعمُد إيذائها حتى يتخلص منها ولا يجعلها تقف أمام عشيقته الأخرى.

وضعت ميادة يدها على ثغرها بملامح عابسة زيُنت وجهها وهي تقول:

-يا حرااام .... ده تلاقيه متضايق دلوقتي ... صعبان عليا أوي بجد

قطُبت أحلام حاجبيها بحيرة من ردة فعل ميادة غير المتوُقعة خاصة من فتاةٍ مُتنمرة مثلها.

-صعبان عليكي !!... يا ميادة ده حيوان، ده كويس إنها مدتوش على دماغه

استمر الحديث بينهما لبُرهة قصيرة زاد معها تعجُب ميادة من نفسها ومن انفطار قلبها غير المفهوم، قطع سيرهما مجيء شيماء ومعها كُتبها الدراسية في محاولة جاهدة للبحث عن بُقعة للجلوس واستكمال دراستها.

قررت ميادة أن تواجه تصرفاتها الغريبة بتصرفاتها المُعتادة ألا وهي التنمر والسُخرية من الآخرين، خاصة شيماء.

رسمُت عوالم المُكر على وجهها وهي تتحرك صوُب شيماء وتتبعها أحلام بلذة على وجهها، قطعت طريق شيماء لتربط ذراعيها بنزقٍ قالت معه:

-لو بتدوّري على مكان فاضي ... فمفيش غير برة الجامعة .... واهو بالمرة كُلنا نرتاح منِك

جاهدت حتى تُنهي الحديث ببسمة شيطانية رغم نبضات قلبها التي تسارعت فجأة وشعورٌ بالذنب لا تعرف من أين يأتيها الآن!!

-شكرًا ... مش بدوِّر على مكان فاضي

قالتها شيماء بثباتٍ لم تعهده ميادة من قبل، فهذه أول مرة ترى هذا الجمود على وجهها ونظراتها، خاصة وهي ترى شيماء تقترب نحوها محاولة الانتقام ولو قليلًا لمَ تفعله ميادة معها.

-وعلى فكرة إنتِ نسيتي إن في حاجة تانية فاضية غير برة الجامعة

رمقتها ميادة بعوالم استفهامٍ قالت معها بثبات:

-وإيه هي ؟

رسمت شيماء بسمة مُنتصرة على ثغرها وهي تُجيب:

-دماغِك

بصقت تلك الكلمة وابتعدت عنهما مُخلفة وراءها نظرات أحلام المُستشيطة وميادة المُتيبسة كالحجارة مكانها وكأن تلك الكلمات ألجمتها، بل جعلت شهقاتها تتصاعد مرة واحدة وأنفاسها تتهدج لسببٍ لا تعلمه.

-إيه يا ميادة إنتِ هتسكتيلها ؟

سألتها أحلام بغضبٍ عارمٍ لم يكن سوى سببًا في انفجار ميادة بالبكاء وكأنها كانت تسجن دموعها فترة طويلة وها قد أتت لحظة الحُرية.

تعالت شهقات ميادة وانهمرت دموعها أكثر أثناء قولها:

-بتقول عليا دماغي فاضية.....

واصلت البكاء بحرارة أمام نظرات أحلام المُبهمة من تصرفاتها العجيبة، فمُنذ متى وهي تبكي على سببٍ ساذجٍ كهذا ؟؟

-إنتِ من إمتى بتعيطي من الكلام ده ؟

سألتها أحلام لتحجب نيران فضولها التي لم تستطع حجبها بسبب ميادة التي نفت رأسها بجهلٍ قالتٍ معه بين بكاءها:

-مش عارفة......

____

لم يترك الهاتف أصابعه وهو يتجوّل داخل الجامعة لا تزال الأفكار تعصف بذهنه وتُذكره بتلك الحماقات التي يفتعلها مُنذ الصباح، فلم يتوقف الأمر عمَ فعله بداية اليوم، بل أنه أيضًا دلف كلية أخرى غير الهندسة وكان مُنسجمٌ داخلها حتى نبهه واحد من الطُلاب بأنه داخل كُلية الصيدلة وليست الهندسة، ناهيك عن ارتكابه لبعض الحوادث الطفيفة بسيارته مما اضطره لركوب سيارة الأجرة حتى لا ينتهي به الأمر إلى كارثة قد تتسبب بفُقدانه لحياته.

حاول نفض هذه الأفكار عن ذهنه مُتذكرًا أن البشر يرتكبون العديد من الحماقات حتى ولو كان شخصًا ذكيًا مثله، فجميعنا يأتي علينا وقتٌ لا نُريد فيه استخدام عقلنا ونُريد أن ننعم بالاستجمام والرخاء اللذان يُخلفان بدوّرهما بعض الأفعال والأخطاء الحمقاء.

على كلٍ، يجب أن يتناول فطوره قبل ميعاد المحاضرة حتى يزداد تركيزه، فربما تلك الحماقة سببها قلة التغذية؛ وقف أمام طاهٍ بأحد المطاعم الصغيرة داخل الجامعة، وكان يمدُّ يده وهو يقول بثقة:

-واحد فول وواحد طعمية بعد إذنك

لم يُبد الطاهي أي من العوالم سوى عوالم الإبهام التي قال بعدها:

-حضرتك ده محل شاورما

انتبه باسم للخطأ الذي اقترفه والذي جعله يضرب على جبهته بحماقة ذكّر معها نفسه أن كليّته لا تحتوي على مطاعم للفطور الشرقي ولا تحتوي سوى على مطعمٍ يتيمٍ يتخصص في بيع الشاورما السورية وشطائر اللحوم وأي نوع من أنوع مأكولات الدجاج.

-أه صحيح ... طب هاتلي واحد كُشري صغير

هكذا صحح حديثه ببلاهة كادت تُصيب الطاهي بالغضب وهو يقول باندفاعة بسيطة حتى لا يفقد زبونًا:

-يا باشا حضرتك دا محل شاورما

اتكأ على حروفه حتى يشرح لباسم الأمر ولم يكن يعرف أن الكلمات لا تخترق ذهن باسم من الأساس، بل جعلته ينبس بنفاد صبر:

-خلاص يا عم ... هات أي حاجة من اللي عندِك

أومأ الطاهي بردوخ ولا تزال عوالم الإبهام والغرابة على وجهه لكنه في النهاية قرر أن يؤدي وظيفته ويُجهزُ شطيرة شاورما لهذا الزبون غريب الأطوار.

مدّ الطاهي حقيبة بلاستيكية احتوّت على شطيرة كبيرة الحجم ومعها عُلبة من العصير المُثلج وبعض الخُضار المُخلل والثومية.

-أربعين جنيه

قالها الطاهي أمام باسم الذي أخرج حافظة نقوده داعيًا ربه أنه لم ينساها بالمنزل وسط هذا الكم من الغرابة والحماقة، أخرج ورقتين مُهترئتين من فئة العشرين وأعطاها للطاهي ثم رحل بسُرعة وكأنه في سباق.

-يا أستاذ ... يا أستاذ

ناداه الطاهي بصوٌتٍ مسموع جعل باسم يتوقف عن السير ويلتفت نحوه ليُدرك أنه تناسى الحقيبة البلاستيكية التي تحتوٌي على طعامه.

رسم بسمة شاكرة على ثغره وهو يعود إلى المطعم ويأخذ طعامه ثم يتحرك داخل الجامعة ولا يزال يشعر أن هناك ما يحدث له وهو لا يعرف ما هو.

بعد فترة وجيزة من البحث بين الأعشاب الميتة والمقاعد الخشبية، استطاع أن يجد مِقعدًا مُنفردًا كارهًا للبشرية لكنه سيذهب إليه رغمًا عن أنفه، بل وسيلتهم شطيرته أيضًا.

جلس على ذاك المُقعد وأخرج شطيرته الساخنة حتى يلتهمها بسُرعة قبل مِعاد محاضرته الأولى، لكنه قبل أن يلتهم قضمة واحدة، أخرج الهاتف الخاص به ليتفقد الوقت قبل أن يسلبه.

وجد عقارب الساعة تُشيران إلى العاشرة والعشرون دقيقة، وهذا ما جعله يوميء بارتياحٍ قال معه بصوٌتٍ خافت:

-المحاضرة الساعة عشرة ... والساعة دلوقتي عشرة وتلت ... يعني فاضل تلت ساعة ... كويس أوي

قالها ببلاهة ثم أخذ قضمة من شطيرته جعلت خلايا عقله يعمل قليلًا ويجعله يُفكر مليًٌا في تحليلاته الحمقاء الأشبه بتحليلات مُحققٍ رآى القاتل أمامه لكنه في النهاية ألبس التهمة إلى جروٍ أليف.

-الساعة عشرة وتلت.... !!

جحظت عيناه وهو يُفكر بحديثه وما هي إلا بُرهة وجيزة حتى أبعد الشطيرة عن جوفه وانتفض كالملسوع يقول:

-المحاضـــرة!!!

_____

استيقظت باكرًا على غير العادة واتجهُت بدورها إلى المرحاض، كانت طوال الليل تُفكر فيما ستفعله بالنقود وتتذكر تلك الكلمات التي استمعت لها قبل حصولهم على التمثال، تلك الكلمات التي أوهمتهم أن هناك لعنة ستتلبسهم فور حصولهم على ذاك التمثال.

ازداد خوفها من تلك اللعنة التي ربما تضحى حقيقية، لكنها في الصباح عندما حاولت التفكير مجددًا في ذاك الأمر، لا تعرف سبب تبلد مشاعرها ورؤيتها لتلك اللعنة الوهمية كرؤيتها لفراشة زاهية تترنح بخيلاء وسط حقِلٍ من الزهور.

فتحت صنبور المياه وتركته مفتوحًا لفترة طويلة حتى غزت الأدخنة في كل مكانٍ وخلقت سُحبًا كثيفة حولها تسببت بتشويش الرؤية، لا تعرف حتى ما الذي تفعله وسبب اصرارها على استخدام مياهٍ تكاد تحرق يديها بسبب سخونتها، فهي بالأساس لا تستخدم سوى المياه الفاترة خوفًا من الاحتراق، وربما خوفها هذا هو ما يجعلها تستخدم المياه الساخنة الآن.

خرجت من المرحاض بعد أن تجففت واغتسلت جيدًا وقررت أن تجلس مع عائلتها الصغيرة فوق طاولة الفطور.

أزاحت مِقعدًا بجوار شقيقها البالغ من العُمر عشرة أعوام، وكانت تعلم أنه لن يذهب إلى المدرسة بسبب تلك الرحلة المدرسية التي ظلُت طوال أيامٍ تلح عليه حتى لا يذهب إليها ويُصيبه مكروهًا.

أخذت كِسرة من الخبز وأمسكت ملعقة لتستخدمها بأخذ القليل من الفول ووضعه داخل تلك الكِسرة، وهذا ما زادها غرابة أيضًا، لأنها ورغم حُبها لتلك الأكلة المصرية البسيطة إلى أنها تتجنبها دائمًا بسبب معدتها الضعيفة التي تؤلمها_ أو التي تخشى أن تؤلمها_ كذلك لا تتناول المُربى خوفًا من داء السُكري، ولا تتناول اللحوم المُدخنة خوفًا من السرطان ولا تتناول البيض خوفًا من الكوليسترول، لكنها اليوم،

تناولت جميع هذه المحظورات كما لو كانت ستموت بالغد ولديها يومٌ واحدٌ فقط لتعيش حياتها.

بادرت والدتها بسؤالها السؤال المُعتاد الذي تسأله إياها يوميًا أملة بتغيير مُعتقداتها لكنها دائمًا ما تلقى نفس الإجابة الضعيفة المُرتجفة.

-هتقعدي في البيت بردو ومش هتروحي الجامعة ؟

كانت نبرة العِتاب جلُية على كلماتها لكنها لم تلقى من لارا سوى نظراتٍ مستفهمة سألت معها:

-وأنا إيه إللي هيخليني أقعد في البيت ؟

لاح التيه على سؤالها وكأنها تكتشف نفسها للتو، آجابها صفي شقيقها الذي يعرف إجابتها جيدًا:

-إنت علطول بتقولي إنِك بتخافي تروحي الجامعة عشان متتعوّريش هناك

قالها ببراءة طفيفة زادت من الغيلان بصدر لارا التي لا تعرف لمَ ينتابها شعور الغضب من ذاتها، أو من تلك الافتراءات الحقيقية، وجدت نفسها تثب عن المقعد باندفاعٍ قالت معه بنظراتٍ نارية آصابتهم بالحيرة:

-خايــفة !!... مين دي إللي خايفة ... أنا مش خايفة ... وهروح كمان الجامعة

أنهت حديثها بتقرير جعلها تترك طعامها وتهرول نحو حُجرتها لتتفقد مِعاد محاضرتها الثانية لأن الأولى قد فات آوانها.

خرجت من حُجرتها بعد أن ارتدت سُترة سوداء فضفاضة تحمل بعض الكلمات التحفيزية باللون الأبيض، وأسفلها سروالٌ مُريحٌ رمادي اللون مع حِذاءٌ رياضي زيُنه ذيل حُصانٍ جمُل خُصلاتها الحمراء وعينيها البُندقية.

هروُلت بعدها نحو الباب أمام نظرات والديها المُبهمة والتي استوقفها والدها بنبرة لينة حاول معها إيقاف جنون ابنته غير المُبرر:

-استني طيِّب أوِّصلك احسن تتخطفي ولا حاجة

قالها بمُزاح طفيفٍ ظانًا من أن ابنتهما تمزح معهما ليس إلا، فهي لعامين كاملين لم تذهب إلى الجامعة سوى فترة الاختبارات التي يضطر فيها والدها أن ينتظرها أسفل باب الجامعة مباشرة حتى لا تتعرض للإختطاف، لكنها اليوم، خاصة بعد استماعها إلى تلك الكلمات، وجدت نفسها تقف أمامهم بجراءة لم تعهدها جعلتها تقول:

-أنا مش خايفة من الخطف ... وهروح مواصلات، وهركب أوبر كمان .... وهرجع بمكروباص...

أنهت حديثها بتقريرٍ ونبرة مُندفعة لتسير بعدها صوُب الباب وتترك المنزل أمام نظراتهم الحائرة ويدا والدتها اللتان تضربان بعضهما في حوقلة....

دلف القاعة متأخرًا على غير العادة، فالتأخير هذه المرة ليس بسبب غفوُته أو زحمة الطريق، إنما بسبب قصة حياته التي سردها على حارس العِقار الذي لم يكن يعرف سوى اسمه فقط.

كانت القاعة تعتج بالعديد من الطُلاب والطالبات وأمامهم مُعلمٌ غليظ الملامح أشيب الشعر ذو لحية كثيفة ولمحة بريطانية تُشعرك أنه عضوًا في الكونجراس.

رسم فخر بسمة ودودة على ثغره ما إن جلس بالمقعد الأخير بسبب امتلاء المقاعد الأولى، خيِّم الهدوء على اركان القاعة خوفًا من ذاك المُعلم الذي قد يتسبب بطردهم إذا استمع إلى همسٍ بسيط، لكن فخر لم يكن يكترث له وهو يرمي الجالس بجواره بسمة ودودة قال بعدها بصوٍتٍ خافت:

-أنا فخر .... معاكم هنا في الدُفعة

رماه زميله ببسمة ودودة ولم يُعقب، أو لم يجد الوقت للتعقيب بسبب فخر الذي بادر بالحديث لأول مرة:

-تعرف إنت ... وأنا سايق شوفت حاجة غريبة أوي ... كان في_

-إنت يا اللي بتتكلم ورا

هكذا قُطع حديثه بسبب ذاك المُعلم الذي انتبه له وقرر معاقبته.

انتبه فخر لحديث المُعلم الذي كان:

-اتفضل اطلع برة .... هو أنا مش قولت محدش يتكلم في محاضرتي ؟

حمحم فخر بحرج قبل أن يستأذن ويُلبي أوامر المعلم دون اعتراض، فأي اعتراض قد يجعل الأمور أسوأ وربما يتم تحويله للتحقيق وينصدم برسوبه بتلك المادة.

ما إن ترك القاعة حتى اغتابته لمحة من الغرابة التي غمغم معها:

-أنا اطرد عشان بتكلم !! .... هو إيه اللي بيحصل ؟

———————————————

-معرفش والله يا أنسة .... معرفش العُطل جاي منين، بس لازم حضرتِك تنزلي عشان ازُق العربية

قالها سائق عربة الأجرة موُجهًا كلماته للارا الماكثة داخل السيارة تكاد تستشيط من الغضب بسبب حظها العثِر، فأول يوم تُجرب فيه سيارات الأجرة بعد فترة طويلة، تصطدم بكلمات السائق الذي يُخبرها أن هناك عُطلًا بسيارته التي توُقفت على قارعة الطريق.

استجابت لارا لطلباته رغمًا عنها وقررت البحث عن سيارة أجرة غيرها حتى تستطيع اللحاق بجامعتها، وأثناء سيرها على الطُرقات وجوارها النيل الأزرق الذي يفصله جسرٌ عريضٍ وسور أكثر عِرضًا.

اغتابها صوٌت استنجادٍ وصُراخ يأتي من أحد أركان الجسر مما دفع حواسها للسير وراء هذه الصراخات ومعرفة سببها؛ هرولت بأقصى ما لديها حتى استوقفها جمعٌ غفير من الناس حول شاب عشريني يقف على حافة السور عازمًا على القاء نفسه والتخلص من حياته.

-يا بني متعملش في نفسك كدة

ترددت تلك الأصوات وغيرها من الالحاحات بخلاف وجود كاميراتٍ تلتقط ما سيحدث، وربما أصحاب هذه الكاميرات يتمنون سقوطه حتى تحتل لقطتهم الصدارة ويُصبحون مشاهير.

ارتجفت جميع الأبدان ولم يستطع أحدهم أن يقترب من ذاك الشاب خوٌفًا من سقوطه، إلى أن لارا، كانت العكس تمامًا، لاحظت نظرات الخوف على الجميع ولم تكن تُريد أن تضحى مثلهم؛ وهذا ما دفعها بالتقدم نحو الشاب خطواتٍ قليلة آشارت معها بأصابعها حتى يهدأ الشاب ويطمئن لها.

قفزت على السور بمهارة وشجاعة لم تعهدها أبدًا، لا تزال أصابعها تُشيران نحوه بهدوءٍ جعل الشاب يُراقبها بحيرة ويتعجب من جرأتها.

-إنتِ بتعملي إيه ؟... إنزلي من هنا

قالها الشاب باندفاعٍ لم يؤثر بها لكنه جعلها تقول بنبرة هادئة:

-لأ مش هنزل .... لازم ترجع عن اللي انت بتعمله .... أيًا كان إللي بتواجهه ... مينفعش تواجهه بالطريقة دي

كانت نبرتها تحمل القليل من الاندفاع الذي جعله يرد بإصرار:

-إنتِ متعرفيش أنا بمر بإيه .... بعدين أنا مش خايف من الموت ... فلو إنتِ خايفة بقى ياريت تنزلي عشان أنا هعمل إللي في دماغي

اتسعت حدقتيها في غضبٍ عارمٍ إثر كلماته التي جعلتها ترفع من نبرة صوُتها:

-مين دي يا حبيبي إللي بتخاف من الموت ؟.... أنا أجرأ منك إنت والناس اللي واقفة هناك دي

صمتت برهة عن الحديث لتشتعل النيران بداخلها أكثر وتجعلها تقول بتقرير:

-وعشان تصدق بقى ... أنا هنُط من هنا ... وهوُريك كمان...

أخذت نفسًا عميقًا ثم أخرجته متجاهلة الصرخات والاستنجادات حولها لتبسط ذراعيها بجوارها وتقترب أكثر من حافة السور أثناء كلماتها الحادة المصُرة:

-أهو....

الفصل الثالث (قبضة الأسياد)

وبعد أن سِرت وراء الشهوات، وحصلت على اللذات، أتت هذه القُنبلة الموقوتة ودمرّت كل شيء....

لم يكن يتردد بعقلها سوى هذا الصوّت الأجش الذي يُخبرها أن تقفز من تلك المسافة ولا يُهم ما الذي سيحدث بعدها، فهي ستثبت للجميع أنها قادرة على تحدي الموت دون خوفٍ أو رهبة، وكأنها ستحصل على مكافأة بعد أن تقفز من تلك المنطقة، وكأن حياتها ستتغير بعد أن تثبت للجميع أنها امرأة شجاعة لا تهاب شيئًا، والحقيقة أن حياتها ستتغير بالفعل، لكنها ستنتهي للأبد...

أغلقت عينيها وبسطت ذراعيها استعدادًا للقفز، وكان المُنتحر بجوارها يرمقها بحيرة ويُريد انقاذها ولا يعرف كيف ذلك، فمن المُفترض أن تأتي هي لإنقاذه وليس العكس....

هوّت بجسدها بضع إنشاتٍ للأمام استشعرت معهم حفيف الهواء وتغاضت عن صرخات الأناس، وقبل أن يرتطم جسدها بتلك الصخور المواربة لنهر النيل وتلقى حتفها، شعرت بمن يجذبها نحوّه بعُنفٍ، جذبة آعادتها للحياة مُجددًا، خاصة مع تلك الكلمات التي بدت غاضبة:

-بتعملي إيه يا مجنونة ؟

فتحت لارا عينيها لترمق فخر أمامها ينظر إليها بحيرة وتطالعه هي بغرابة، تشعر أنها أمام مُعلمة تسألها أسئلة الاختبارات التي لا تعرفها ولا تعرف مكنونها حتى، فقط عوالم التبلم هي ما كانت على وجهها وهي تُشير على فخر متفوّهة بتلعثم:

-إنـ...إنت...

عدّل فخر من هندامه بخيلاءٍ قال معه:

-فخر .. اسمي فخر

قطبُت حاجبيها بحيرة من لكنته الودودة التي تختلف تمام الاختلاف عن لكنته السابقة، وهذا ما جعلها تقول:

-إنت مكنتش عايز تقولنا اسمك المرة اللي فاتت

رمقها بسُخرية المُجرم الذي يتلقى نصيحة من نظيره:

-ما إنتِ امبارح كُنتي بتخافي من نملة ... دلوقتي عايزة ترمي نفسِك في النيل!!

لاحت نظرات الارتياب على وجهها الذي أحنته لأسفل وهي تقول بتيه:

-أنا مش عارفة إيه إللي بيحصل .... حاسة إن عندي طاقة كبيرة ممكن تخليني أروح أضرب أي حد قُدامي أو أنط من على السور

رماها ببسمة ساخرة من حاله وما يحدث معه، اتضح أن الغرابة التي يشعر بها لا تتلبسه هو وحده، بل تتلبسهم جميعًا وكأنها ثياب العيد التي لم يختاروها:

-ومين سِمعك .... دا أنا من الصُبح بحكي قصة حياتي لأي حد بشوفه قُدامي .... بعد ما كنت مش طايق أبُص في خلق الله

أسبلت بعينيها لأسفل وهي تُفكر في حديثه حتى أردفت بحيرة:

-طب هنعمل إيه ؟.... تفتكر ده ليه علاقة بالتمثال ... مش يمكن اللعنة تبقى حقيقية ؟

فكُر في حديثها لوهلة ولم يكن يجد من الإجابات ما يقولها، فهو بالأساس كان يوُد العودة إلى منزله لكنه توقف بسيارته بمُنتصف الطريق حالما وجد هذا الجمُع من الناس وصوُت لارا يصدح بينهم، في ظروف أخرى، كان ليتركهم وشأنهم، لكنه لا يعلم لمَ شعر برغبة جامحة بالاقتراب من الجميع والتحدُث معهم، وهذا الأمر يُصيبه بالضجر، فهو لا يُحب أن يفصح عن حياته أمام الآخرين.

-معرفش ... بس خلينا نكلمهم ونشوف إذا كانو هُما كمان حاسين بحاجة غريبة ولا لأ

استحسنت ما توّصل إليه من قرارٍ مما جعلها تُخرج هاتفها مُردفة:

-طيب ... انا هكلم ميادة هشوف هي فين وهقولها اننا لازم نتقابل....

_____

صوّت شهيقها ونحيبها غمُر هذا المرحاض الصغير الخالي من الفتيات، دموعها كشلالات أنجل وهي تنحدر على وجنتيها عازمة على إحداث نهرًا آخر يعادل في طوله نهر فيكتوريا، وكلما تُكفكف تلك الدموع البائسة تجد الأفكار السوداوية تُداهمها مرة أخرى وتجعلها تنخرط في البُكاء كما لو أنها تعوّض البُكاء الذي لم تبكيه مُنذ نعومة أظافرها.

هي التي لا تبكي بحياتها سوى نادرًا وتتلذذ بالسُخرية من الآخرين ومشاهدة حُزنهم، لا تعرف ما الذي يحدث معها ويجعلها تبكي من أكثر الأشياء سذاجة، حتى أنها بكت بحرارة حينما شاهدت كلبًا يعرج بقدمه المكسورة.

-ميادة !!... في إيه ؟ بتعيطي ليه ؟

خرجت تلك الكلمات بحنوٍ بالغ من باسم الذي شاهد بكاءها من بعيدٍ وآراد أن يُخفف من حدة ضيقها، فهو يفعل ذلك مع أي تاءٍ مربوطة يتعرّف عليها.

حاولت ميادة كفكفة دموعها للمرة التي لا تعلم عددها وهي تجيبه بتيهٍ:

-مش عارفة ... أنا بعيَط كدة من الصُبح

ازداد نحيبها أكثر بعد تلك الكلمات وأضحى صوّت بكاءها يُعادل صوّت دجاجة لا تتوقف عن النواح، كانت عوالم باسم مُتبلمة يشعر بالعجز وهو يراها تبكي ولا يعرف كيف يتصرّف، هو بالأساس يشعر أن خطبًا آصابه ولا يعرف كيف يفصح عنه.

-طب إنتِ بتعيطي ليه دلوقتي ؟

سألها ببعض الاندفاع عندما وجد بكاءها يزداد ليجدها تُجيبه بنفس ذاك التيه:

-منا بعيط عشان مش عارفة أنا بعيَط ليه

كان الغضب بادٍ على صوُتها وإن كان مُختلطًا بنحيبها، ازداد باسم عجزًا وهو يطرق برأسه لأسفل متفوُهًا:

-يعني إنتِ كمان حاسة إن في حاجة غلط

توقفت عن البُكاء بُرهة لتنتبه لحديثه، فيبدو أن ما يحدث معها يحدث مع بقيتهم.

-قصدك إيه ؟... هو إنت كمان حاسس بحاجة غريبة ؟

أومأ باسم إيجابًا وهو يقول بصدق:

-أيوة ... حاسس كدة إن دماغي واقفة ... مش عارف أفكر، حاسس إني بعمل كل حاجة من غير ما أفكر... كأني نسيت يعني إيه تفكير_

قطع حديثه شهقة مدوية نابعة من فتاة غريبة وطأت بقدميها الحمام وشاهدت باسم يقف بأريحية مع ميادة ذات الوجه الأحمر الغارق بدموعه، وكأي فتاة في هذا الوضع، بدأ عقلها يذهب إلى أفكارٍ أخرى مثل أن باسم قام بالاعتداء على ميادة وهو الآن يحاول تهدئتها، أو أنه لا يزال يحاول الاعتداء عليها وميادة لا تتوقف عن البُكاء بسبب الخوف، تلك الأفكار السوداوية كادت تجعلها تُطلق صرخة مدوية لولا ميادة التي اتسعت حدقتيها وارتبكت خواصها كما كان باسم بالضبط، فهو يشعر الآن أن أحدهم شاهد سكينًا غارقًا في الدماء بين أصابعه وسيذهب به الآن إلى حبل المشنقة.

-يا لهوي إحنا في حمام البنات

قالتها ميادة بصوٌتٍ مبحوح جعل باسم يرتجف خوفًا وهو يقول بعرقٍ يتصبب على جبينه:

-وهـ..هعمل إيه دلوقتي ؟

إقتربت قليلًا من أذنيه لتهمس له:

-حاول تفهمها ... أنا لو فتحت بوقي ممكن أعيَط

أحبط قرارها بقوله الهامس:

-أنا إللي لو فتحت بوقي ممكن أبوٌظ الدنيا

-يعني هنعمل إيه ؟

-مفيش غير حل واحد

انتهى همسهما بتلك الكلمات المُقررة التي نصَب معها قامته وبدأ يتحرك بخطواتٍ قليلة صوٌب هذه الفتاة التي كانت على وشك تصويره ونشر صورته أمام الجامعة.

-أنا هوٌديك في ستين داهية

قالتها الفتاة بغضبٍ عارمٍ جعل باسم يُسرع من خطواته متفوٌهًا برجاء:

-والله العظيم إنتِ فاهمة غلط

لم تهدأ الفتاة وبقيت تصرخ بوجهه:

-فاهمة إيه ... أنا هصوٌرك دلوقتي واوري صورتك للعميد

كادت تُخرج هاتفها لولا تلقيها لدفعة من باسم كادت تُطيحها أرضًا، ففي أوضاع أخرى، كان ليتحدث معها بترو ٍ ويستلطفها بحديثه، أو ما كان ليدلف حمام الفتيات من الأساس، لكنه الآن، لا يعرف ما الذي يفعله ولا يعرف حتى سبب دفعه لها بهذه الطريقة، فكأن ما يُحركه قوة هائلة لا تسمح له بالتصرف وفق رغباته، حسنًا، لا يُمكن تسميتها قوة وهي تجعله يتصرف بتلك الحماقة.

هرول باسم بعيدًا عن تلك الفتاة بأقصى ما لديه ووراءه ميادة تحاول اللِحاق به حتى يفهما ما يحدث معهما، توقف أخيرًا عن الركض بعد أن أوصلته قدماه إلى بُقعة نائية بعيدًا عن أعين الطُلاب، خاصة تلك الفتاة النسوية الغاضبة.

أحنى ظهره قليلًا وبدأ يلهث بقطرات العرق التي تتقاطر من جبينه، اعتدل في وقفته أمام ميادة التي تحاول التقاط أنفاسها إثر هذا الركض، ثم تقول بعد فترة من الصمت:

-والعمل ؟... لازم نفهم اللي بيحصلّنا .... واشمعنا إحنا بالذات ؟

لم يُجب سؤالها وبقي غارقًا في تفكيره الذي جعله يقول ببلاهة:

-مش يمكن كُلنا أكلنا حاجة مسمومة خليتنا كدة

لعنت بلاهته في سرها قبل أن تقول:

-إحنا مأكلناش مع بعض أصلًا ... ده الحاجة الوحيدة إللي عملناها سوا هو إننا جبنا التمثال ده وبعناه

بترت حديثها عند هذه الكلمة وبدأت تتفرس حديثها جيدًا، فبما أن الغرابة آصابتها هي وباسم، ولا يوجد شيءٍ يجمع بينهما سوى التمثال، فبالطبع هناك ما حدث للاثنين اللذان شاركاهما تلك الجريمة، وربما التمثال هو السبب فيما يحدث.

-التمثال !! ... فاكر اللعنة إللي سمعناها واحنا بنجيب التمثال ؟

قطّب حاجبيه وهو يستنتج من حديثها:

-قصدك تقولي إن في لعنة ؟

لم تؤكد حديثه ولم تبطله حتى، فهي لا تُصدق وجود اللعنات، ولا ترغب بتصديق وجودها، لكن في حالتهم، لا يوجد تفسير آخر لما يحدث سوى تلك اللعنة.

-معرفش ... بس أكيد في حاجة

قطع حديثها صوُت هاتفها الذي صدح برقم ابنة خالتها؛ اتسعت حدقتيها في أملٍ وهي تتفحص تلك الأحرف متفوِّهة:

-دي لارا بتتصل...

آجابت على المكالمة بسُرعة ولم تجد من لارا سوى كلماتٍ صارمة لا تعهدها عادة من ابنة خالتها التي تخشى خيالها، انتهت المكالمة باتفاقهم على المقابلة بإحدى المقاهي لأمرٍ شديد الضرورة ولا يحتمل الانتظار، هذا الأمر يتعلق بما يحدث معهم، ويتعلق بهذا التمثال أيضًا....

———————————————

اختفت أشعة الشمس ولم يختفي معها أملهم، أو ربما حيرتهم وضياعهم، فما يحدث منذ بداية اليوم يُثير الشكوك بداخلهم، يجعلهم يعتقدون أنهم بكابوسٍ يبدو حقيقيٌ للغاية، ولا استيقاظ من بعده.

بقيوا لأكثر من ساعة يقصون ما حدث معهم منذ بداية اليوم، فكانت لارا تتحدث وكأنها في عِراكٍ مع أحدهم، وفخر لم يتوقف عن الحديث عن حياته التي لم يطلب أحدهم الاستماع اليها، أما ميادة، فكانت دموعها تكاد تُغطي على جلستهم وكأنها فقدت فقيدًا، وباسم يُتابع ما يحدث من بعيد وعندما يتدخل تكون الحماقة هي سيدة الموقف.

أنهى فخر هذا النقاش الأشبه بنقاشٍ يتم انعقاده بالبرلمان، بسط ذراعيه أمامهم ليردف باستنتاج:

-خلاص يا جماعة أنا فهمت .... التمثال ده أكيد وراه حاجة ... ما هو مش معقول أصحى فجأة ألاقي نفسي بحب الناس ... دا انا حكيت قصة حياتي لبواب العُمارة !!... إنتو مُتخيلين !.... أنا من صباحية ربنا بحكي قصة حياتي لأي حد بشوفه .... دا حتى وأنا صغير_

كاد يواصل الحديث عن طفولته وأحداثه المملة بالنسبة لهم وله أيضًا، فلسانه يتحدث بما لا يُريد التحدث به كما لو كان فاقدًا للسيطرة على ما يقوله، رفع باسم يده كي يستوقفه بحدة:

-يا جدعان أنا الصُبح في واحد معايا في الدُفعة قالّي إن غسيل الأموال بيجيب فلوس ... روحت جبت الفلوس إللي معايا وحطيتها كلها في الغسالة... قال يعني هتكتر وكدة...

أحنى رأسه وهو يواصل سرد حكايته بحسرة:

-طلعت غبي ... والفلوس كلها راحت .... وكل ده عشان غسلتها بماية سُخنة ... عارفين ... لولا اللعنة دي كُنت غسلتها بماية ساقعة وبقيت غني

احتقنت وجوههم وبدت نظرات البلاهة تلوح عليهم وهم يتابعونه ولا يعرفون كيف ستضحى ردة فعلهم، قطعت لارا هذا الصمت بقولها الذي حمّل سُخرية مُبطنة:

-لأ غبي أوي الصراحة ... إزاي تغسل الفلوس بماية سُخنة ... إنت متعرفش إن الحاجة بتكش من الماية السُخنة ولا إيه ؟

نفى باسم برأسه وهو يواصل حماقته التي اكتسبها مؤخرًا:

-كُنت عارف ... بس اللعنة دي منها لله خلتني أنسى

انفجرت ميادة بالبكُاء كما تنفجر ينابيع المياه لتُغرق المكان حولها بالدموع المُتحسرة، صدح صوّت نحيبها الأشبه بغناءٍ سيءٍ لفتاة تظن أنها ماهرة في الأوبرا؛ رفعت لارا يدها لتُربت على ظهرها الساخن بمواساة:

-في إيه يا ميادة ؟

ارتفع صوُت شهيقها وهي تُجيب بين دموعها:

-أصلي متضايقة عليه أوي....

واصلت بكاءها بحرارة مما وضع المزيد من الأفكار داخل رأس لارا التي أردفت باستنتاج:

-أنا فهمت إللي التمثال ده عمله .... التمثال غيُر شخصيتنا لشخصية تانية منقدرش نعيش بيها...

آشارت على فخر وهي تواصل الحديث:

-يعني فخر بقى شخصية اجتماعية ... عشان هو مكنش بيطيق حد

ثم آشارت على باسم لتواصل:

-وباسم كان أذكى واحد فينا ... عشان كدة بقى غبي ... لا مؤاخذة يا باسم

أنهت حديثها باعتذارٍ استقبله باسم برضا ليسمح لها بمواصلة الحديث بإشارتها على ميادة:

-وميادة كانت شخصيتها قوية ... ويمكن عشان كدة بقيت حساسة زيادة عن اللزوم

أحنت ميادة رأسها بخجلٍ لعلمها جيدًا أن لارا لا تعرف أنها مُتنمرة وتسخر من الجميع، ربما لهذا السبب جعلها التمثال شديدة الحساسية، آشارت لارا بعدها على ذاتها متفوٌهة ببعض الخزي:

-وأنا عشان كُنت جبانة ... بقيت شُجاعة لدرجة إني ممكن أنتحر من غير خوف

حالت بينهم بُرهة طويلة من الصمت والتفكير في حديثها حتى أردف فخر:

-ده معناه إن التمثال بيعاقبنا

-أو يمكن بيأدبنا ... أو بيوّصلنا رسالة

قالتها لارا بثقة كمن يقف أمام المُعلم ويتلو عليه ما سهر الليالي على حِفظه، وبعد بُرهة وجيزة من الصمت، استطاعت ميادة أن تُكفكف دموعها أخيرًا وتتقدم بجذعها داخل ذاك المقهى حديث التراث كي تقول بتقرير:

-والعمل ... أنا مش هقدر استحمل العياط كل خمس دقايق ... أنا كدة عينيا هتبوظ

أضاف باسم على حديثها بحسرة حملت اندفاعه وإصراره:

-أنا إللي مش هقدر أعيش كدة ... أنا خايف اعمل مُصيبة وأنا مش دريان ... دا إن مكنتش عملت أصلًا

رفع من نبرة صوُته مع آخر كلماته يحاول استرجاع ما فعله خلال اليوم من حماقاتٍ كادت توُدي بحياته، أو ربما تسبب بإيذاء شخصٍ ما بسبب حماقته وهو لا يعرف ذلك.

-إحنا لازم نلاقي حل ونتخلص من اللعنة دي

قالها فخر بحدة وأعينٍ ينطلق منها النظرات المليئة بالإصرار، ظل الجميع في حالة طويلة من الصمت الذي قطعه باسم بتقريرٍ بدا واثقًا وهو يقوله:

-أنا جاتلي فكرة رغم حالتي دي...

قطُب الجميع حاجبيه بتركيزٍ على حديثه الذي كان:

-بما إن دي لعنة ... يبقى مفيش غير مكان واحد بس إللي نقدر نتخلص فيه منها....

_____

انتشرت دقات الطبول وصوّت الدفوف في كل مكان مع إشراقة شمس يومٍ جديد، فهو إرثٌ موسيقيٌ يُصارع للبقاء ويتصل دائمًا بقصص الشعوذة، يوصف بالشيطاني أو الوثني، وبعض الفتاوي تعده مُنكرًا، لكنه تحوّل في بعض الأماكن إلى فنٍ شعبيٍ مُتخصص، فهذه هي طقوس الزار.

وكلمة زار، مُشتقة منDJAR ، كبير آلهة الكوشيين، الذي تغير اسمه لدى بعض الطوائف إلى بارو أو دارو، وظهر منه في إطار المسيحية الحبشية اسم " روح شريرة " وهو " زار "، وهذا ما استعاره المسيحيون الأحباش من بعض القبائل الوثنية.

أصل طقس الزار وثنيًا، ويعود إلى القبائل الإفريقية، ودخل إلى الثقافة العربية عن طريق العبيد الأحباش، فانتقل بدوره من الحبشة إلى السودان، ومنها إلى مصر عام 1870م، ومن مصر إلى بقية الدول العربية، ومع مرور الوقت، تحوّل إلى طقسٍ احتفاليٍ لطرد الجان والعفاريت، كما يوجد ثلاثة أنواع من الزار، أولهم الأسبوعي، الذي يظهر فيه احترامهم للسيد واسرتضاءه، الثاني هو الحفل الكبير، والهدف منه شفاء المريض بمعرفة الأسياد ومحاولة ارضاءهم وتقديم القرابين لهم، والأخير هو الحفل الحولي، وهو يُقام كل عام في شهر رجب، أما في شهر رمضان الكريم، تتوقف حفلات الزار بأنواعها.

كان هذا هو النوع الثاني من الزار، حيث بدأت فيه المراسم بقيام الكُدية_ وهي المرأة التي تقود الجُلسة وتُسمى أيضًا بالشيخة أو عريفة السكة_ بوُضع كُرسيًا في وسط المجلس، وتجلس عليه صاحبة المنزل الذي أقيم لها الزار، يتم إحضار دجاجتين وديكًا وتُربط أرجلهما، يوُضع الديك على رأس السيدة والدجاجتين على أكتافها حتى يتم تلاوة القراءات المعهودة وتُنشد الأناشيد.

تصرخ الدجاجات هلعًا من دقات الدفوف وأصوات المنُشدين، وجميع الحاضرون يُرددون:

-دستور يا أسيادي ... مدد يا أهل الله...

والكُدية وأعوانها يضربن بالدفوف ويُنشدن الأناشيد على نغماتٍ مُختلفة، ثم يقتربن من صاحبة المنزل ويجعلنها تدور في حلقة الزار والكُدية تمسكها من ذراعيها وهي تتمايل معها على إيقاع الدفوف حتى تركع أمام الضاربات في نهاية اللفة السابعة.

كل هذا يحدث أمام أعينهم التي ترمق كل هذا في ذهولٍ تصاعدت معه ضربات قلوبهم وبدأو يتخيلون أنفسهم موقع هذه السيدة صاحبة المنزل، لكن باسم بات مُطمئنًا وكأنه مُعتاد على تلك الطقوس، بل كان الوحيد الذي لم تبدو عليه نظرات الهلع، وآشار لهم بأصابعه حتى يتبعونه ليتخطوا مراسم الزار ويتجهوا صوٌب المنزل عازمين على زيارة الشيخ ضاحي.

لم تتوقف الأناشيد من حولهم باللهجة السودانية:

-يا مرحبة بأم الغُلام ... ردو السلام على أم الغُلام ... يا بنت ماما يا أم الغُلام ... يا أم الغُلام والعفو منِك ... يا أم الغُلام بيني بُرهانِك... يا أم الغُلام اشفي عيانِك....

تصبب العرق على جبين ميادة وهي تتخطى هذه الأناشيد والمراسم بأعجوبة ويداها لم تتركا يد لارا وكأنها تحتمي بها، بعد أن كانت لارا تحتمي بها هي فيما سبق.

هدأت أصوات الأناشيد وحلٌ محلها سكونٍ جثيمٍ بدأ يطبق على أنفاسهم ويزيدهم رهبة، وقفوا بمُنتصف منزلٍ عريضٍ يبدو مصنوعًا من الطوب اللبن، الأثاث بسيطٌ يكاد يكون معدومًا، وهناك لمحة فلاحية تطغي على المكان رغم أنهم لم يتركوا القاهرة، فهم الآن بالسيدة زينب.

قطع رهبتهم صوٌت شابٍ يبدو بمُقتبل الثلاثين، يرتدي جلبابًا زيتونيًا ويُغطي شعره بعمامة بيضاء ليست ناصعة البياض، كان يعرف من البداية أنهم على موٌعدٍ مع

الشيخ ضاحي؛ لهذا السبب آشار لهم بيديه أن يتبعونه داخل هذا المنزل العريض تحديدًا بحُجرة واسعة أشبه بالجناح.

فُتح باب الحُجرة بهدوءٍ مع صريرٍ أصدره الباب كاد يُصيبهم بسكتة قلبية، تقدمهم باسم بحُجة أنه الأكثر دراية بالمكان، رغم أن فؤاده لم يتوقف عن الطنين، بات يلعن نفسه الآن على تلك الفكرة الحمقاء التي جعلتهم يأتون هنا.

أخذ نفسًا عميقًا وهو يدفع الباب بتروٍ ويطيء الحُجرة بأقدامٍ مُرتعدة تلتها أقدام لارا التي ارتفع أدرينالينها وبدأت تشعر بالنشوة وهي تتحدى ما يُصيبهم بالرهبة.

اتسعت حدقات الجميع في هلع ما إن وطأت أجسادهم هذا الجناح لتتقابل أعينهم مع مشهدٍ أوقف تدفق الدماء بعروقهم وجعلهم يُطلقون صرخة مدوية مذعورة كاد صوُتها يُغطي على صوُت الأناشيد المُنبعثة من الزار....!!

الفصل الرابع (سبعة أيام)

الاحساس الحقيقي بالخطر، يأتي وأنت على مشارف الموت، أو في مُنتصف المُعركة....

اتسعت حدقاتهم في صدمة تبلمت معها وجوههم وانشرخت حنجرتهم إثر تلك الصرخة التي أصدرها الجميع باستثناء لارا التي اكتفت بالنظر لما يحدث بذهولٍ حاولت معه قدر الإمكان أن تُسيطر على ارتجافة جسدها.

رجل ضخم يتشح جسده بالسواد بأعينٍ بارزة بيضاء وندبة تعتلي جبهته اليُمنى كما لو كان الناجي الوحيد من معركة دموية، يجلس هذا الرجل على الأرض أمامه كتابٌ ضخم مليءُ بالطلاسم والكلمات غير المفهومة، وشفتاه لا تتوقفان عن تلاوة الكلمات الغريبة، كما أن أصابع يده اليُمنى لا تتوقف عن التسبيح لسببٍ لا يعلمه أحد.

كان يتلو " العزيمة البركية " وهي قسمٌ عظيمٌ لا يتخلف عن ملكٌ ولا يُعصيه جن، قسم يحتوي على 28 اسمًا من أسماء الله الحُسنى بلغة لا يعرفها سوى الجن ويستجيبوا لها في ثوانٍ، وفي رواية أخرى، يقولون أنها ليست أسماء الله الحُسنى وإنما أسماء الشياطين التي يستدعيها الساحر.

ازدرد باسم ريقه في هلعٍ من هول الموقف، فهو قد ظن أن الشيخ ضاحي، هو شيخًا وليس ساحرًا أو داجلًا أو أيًا كان ما يتمثل أمامهم، فهذا المشهد ذكرهم بالسيد الحُسيني في فيلم " عاد لينتقم " خاصة مع تلك المحارم المليئة بدم الحيض والتي تعادل الستة عشر محرمًا، كما يوجد أيضًا العديد من أوراق المحارم التي تحتوي على سائلٍ منويٍ وكمياتٍ كبيرة من قنينات الحليب، مع قفلٍ يتوّسط هذا كله يُستخدم كرمزٍ لوقف الحال.

ضرب فخر على كتِف باسم بتوّبيخ همس معه بطريقة حاول معها تدارك رهبته:

-إنت مش قولت إنه شيخ ؟

توتر باسم وهو يُجيبه بصوُتٍ مُرتجف:

-وحياة ربنا الواد ساموزين قالّي إنه شيخ وكُبارة

توقف ضاحي عن ترتيل الكلمات لتختفي أصوات الهمسات الغريبة والأطياف التي كانت تزيدهم رهبة، كان يبدو بوضوح أنه ضرير بسبب عيناه اللتان لم ترمقهم ولو لثانية، حيث كانت حدقتيه تشردان في بُقعة نائية، لكنه آشار بيده حتى يقتربوا منه ويجلسوا على الأرض في حلقة ينتصفها مبخرة ينبعث منها الأدخنة وذاك الكُتاب الضخم العتيق الذي لا يعرفون حتى الآن كيف يقوم بقرائته وهو ضرير.

حمحم فخر بارتباكٍ قبل أن يبدأ الحديث بجدية:

-احنا ... عندنا مُشكلة كدة يا شيخنا وكنا_

قطع حديثه تصاعد ألسنة اللهب مع كلمات ضاحي الهاجرة:

-ابتعدي ايتها الروح الغاضبة ... ابتعدي بأمرٍ من الأسياد

اقتربت لارا من أذن فخر حتى تهمس له:

-أنا بقول نمشي قبل ما نتلبس ... إللي بنعمله ده غلط

كاد يُجيبها فخر لولا ألسنة اللهب وصُراخ ضاحي الذي أفزعهم وجعلهم يرتدون للوراء ليتفوّه فخر بذعر:

-أنا بقول كدة بردو ... يلا بينا....

_____

تركوا الجناح خاليي الوفاض يسبون باسم على ذاك الاقتراح عديم الفائدة، فمُنذ متى ويلجأ المتعلمون أمثالهم إلى الدجل والشعوذة ؟؟

ترنحت أقدامهم بيأسٍ وهي تبتعد عن تلك البُقعة ولسان حالهم لم يتوّقف عن الحديث:

-هنعمل إيه في المُصيبة دي ؟... أنا مش هقدر اعيش كدة مش هقدر

قالتها ميادة بدرامية جعلتها تنفجر بالبُكاء كعادتها مُنذ سيطرت عليها تلك اللعنة، تدخلت لارا لتُربت على ظهرها ثم تردف بتقرير:

-إحنا لازم نلاقي طريقة نتخلص بيها من اللعنة إللي جبهالنا التمثال ده

قطع حديثها ذاك الشاب الثلاثيني الذي استمع إلى نقاشهم بالُصدفة، فهو كان على مقربة منهم، كما أن صوُت نقاشهم بدأ يزداد حِدة وارتفاعًا كما لو كانوا يتناقشون عن مصير دولة داخل مؤتمرٍ كبير.

-أنا آسف لو كنت بتطفل عليكم ... بس أنا سمعتكم من غير قصد

تعجبوا من لكنته الهادئة المُهذبة التي لا تتوافق أبدًا مع مكانٍ كهذا، وتعجبوا أكثر من تدخله بحديثهم وكأنه يحمل الحل، وهذا ما جعلهم يُمعنون التحديق به أثناء قوله:

-أنا سمعتكم بتتكلمو عن لعنة وتمثال .... وبصراحة أناا... تقريبًا عارف واحد اتعرض لحاجة زي كدة

اتسعت حدقاتهم في أمل الطالب الذي وجد طريقة للنجاح في الفيزياء، وأول من بادر بالحديث كان فخر الذي سأل:

-مين الشخص ده ... تعرف هو فين ؟

أومأ الشاب بثقة آجاب معها:

-كان جاري من حوالي 15 سنة ... وأبوه كان عالم آثار كبير ... حكالي قبل كدة عن تمثال جابه أبوه واتسببلهم بلعنة ... أو اتسبب لأبوه بلعنة ... واللي فاكره إنه كان عارف طريقة يتخلص بيها من اللعنة دي

تصاعدت نبضات أفئدتهم حتى احتدت نظرات باسم وهو يسأل باندفاع:

-قولنا عنوان الراجل ده بسُرعة....

_____

احتسى رشفة من قهوته الداكنة المُتمركزة على طاولة مكتبه المحفوف بالعديد من الكُتب والمُستندات العتيقة، عبث بيديه فوق هذه المُستندات حتى التقطت أصابعه ورقة بردية عتيقة تعود إلى مئات السنين، وبسبب عتاقتها، كانت الكلمات مُبهمة ناهيك عن تلك اللغة الغريبة المكتوبة بها.

رفع بكر تلك الورقة العتيقة واتجه نحو جهازٍ لوُحي كبير يتوُسط أركان المكتبة، وضع الورقة بعناية فوق هذا الجهاز الذي يشع ضوءًا، ارتدى عويناته وأمسك بعدسته المُكبرة ليُسلطها على تلك الورقة ويبدأ بتدوين ملاحظاته على دفتره، فهو يعمل كعالمٍ للآثار بإحدى المُنظمات الدولية بعد أن ألهمه والده بتلك الوظيفة.

قطع انهماكه بالعمل هرولة ابنه ظافر البالغ من العُمر أربعة أعوام، فوالدته قد ذهبت للتبضع وتركته وحيدًا مع والده على أمل أن ينتبه له في غيابها المؤقت، كان ظافر يلهث من الركض وكأنه في سِباقٍ وهو يقول بين لُهاثه:

-بابا ... في ناس برة

انتبه بكر لحديث طفله فرفع عينيه عن الورقة وترك العدسة المُكبرة والدفتر جانبًا حتى يسأل:

-ناس مين ؟

رفع ظافر كتفيه بجهلٍ قال معه بطفولية:

-مس عارف

أومأ بكر إيجابًا ثم ترك مكتبه ليرى هؤلاء الضيوف غير المتوقعين، خاصة في إجازة رسمية كهذه.

اتجه إلى البهو ليجد فتاتين وشابين يجلسون قبالة بعضهم على الأرائك ويبدو على بعضهم التوتر والارتباك، لاحت نظرات الحيرة على وجه بكر لكنه مع ذلك رسم بسمة هادئة على ثغره وهو يُحييهم ويُصافح الشباب ثم يجلس أمامهم على مقعدٍ يتوّسط الأرائك.

-مين حضراتكم ؟

كان يُريد أن يوّبخ صغيره على سماحه للغُرباء بدخول المنزل خوفًا من أن يضحوا لصوصًا أو ما شابه، لكن لوهلة، رآى بوادر الارتباك على وجوههم واتجهت أفكاره من الخوف منهم إلى الخوف عليهم، فربما يقعون في مأزقٍ ويطلبون مساعدته، وربما سيضعونه هو في مأزق.

-أنا فخر ... واحنا سألنا عليك واتطأسنا ... وعرفنا إنك ابن ناس وهتساعدنا في إللي احنا فيه ... أصل احنا من يومين، كنا في رحلة تبع الجامعة، كان في حفلة شوي ومُخيم وحاجات كدة أنا مكنتش بطيقها زمان ... بس دلوقتي حاسس إني عايز أعيد الرحلة دي تاني ... أصلي عايز_

قطعته لارا بحمحمة صدح صوّتها حتى يتوقف فخر عن حديثه عن حياته أمام الغُرباء؛ فهِم فخر إشارتها فورًا وسببٌ هذه اللعنة في قرارة نفسه قبل أن يلتزم الصمت ويتوقف عن سرد قصة حياته، أمسكت ميادة ضفة الحديث هذه المرة لتقول بوُد:

-هو حضرتك تعرف حاجة عن تمثال مردوخ ؟

سألته بجدية جعلته يبتلع لسانه في وهلة ويتابعهم بعينيه بشكٍ آجابهم بسؤال:

-أيوة ... بس انتو بتسألو ليه ؟

طغي الارتباك على جلستهم وتبادلت نظراتهم في حيرة، فلا يجب أن يفصحوا عن تلك الجريمة التي قاموا بها وأوقعتهم في هذا المأزق، لاح الصمت بينهم لفترة قبل أن تتجرأ لارا وتُغطي الحقيقة بكذبتها:

-أصل احنا في كُلية آثار وإيه .... بنعمل بحث عن التمثال ده ... أصلهم بيقولو يعني إن فيه لعنة وكدة، وعرفنا إن إنت الوحيد إللي عارف عن اللعنة دي

أسبل بكر بعينيه مُتذكرًا ما حدث ماضيًا وما تسبب له بجروحٍ غائرة لم تندمل حتى هذه اللحظة:

-أه ... عارف اللعنة

تدخل باسم بالحديث ليسأل باندفاع:

-مين إللي جاتله اللعنة دي ؟... وحصله زيِنا_

ضربه فخر على كتفه قبل أن يفصح بالحقيقة ويوُقعهم في شر أعمالهم؛ حمحم باسم بارتباكٍ قبل أن يُغطي على حماقته بقوله:

-أقصد حصله إيه ؟

تنهد بكر تنهيدة عميقة حارقة قبل أن يُعيد ظهره للوراء ويُقرر الافصاح عن الحقيقة، فلا مجال للإخفاء والكذب بعد الآن....

_____

عام 2011م، تحديدًا بعد انتهاء الثورة وانتشار الفساد في كل مكان، قلُّت الحماية وقتها على الآثار والمُتعلقات الأثرية مما تسبب بالعديد من السرقات، ورغم ما كان يحدث وقتها، إلا أن والده حافظ على ضميره المهني ولم يحيد عن طريقه ويتجه إلى طريق السرقة بصفته عالمًا كبيرًا للآثار.

وفي يومٍ من الأيام، بشهر فبراير، عاد والده إلى المنزل بعد أن استطاع التنقيب عن أثرٍ يعود إلى آلاف السنين، وكان هذا الأثر تمثالًا من النحاس المتهالك يتفرع منه جناحين عريضين يتوّسطهما خُنفساء كبيرة وهي رمز الإله خبيري الذي يُجسد قوة الخلق غير المرئية.

لا يستطيع أن يصف كم السعادة التي غمرت والده فرحة بهذا التمثال العتيق، بقي لساعاتٍ ينُظف هذا التمثال عن الأتربة ويُنظفه جيدًا حتى يتم إيداعه بالمتحف.

وبالفعل تمت المُهمة بنجاح، وأقيم حفلٌ كبيرٌ احتفل فيه كبار عُلماء الآثار بوالده بعد أن اكتشف هذا الاكتشاف العظيم، يتذكر كم التهنئات والمباركات واللقاءات الصحفية التي أتت لوالده وقتها وجعلته من أشهر عُلماء الآثار بذاك الوقت.

لكن كما تقول الحِكمة، ليس كل ما يشتهيه المرء يُدركه، ولا تأتي الرياح بما تشتهيه السُفن، فسرعان ما انقلب السحر على الساحر، وأصبح هذا الاكتشاف العظيم نقمة حلُّت على رؤوسهم وأصابته هو ووالدته، أصبح والده الهاديء الرزين، كُتلة نارية يزداد غضبه من أقل الأمور.

تذكر الجحيم الذي عاشه وهو بالسادسة عشر من عُمره وتغيُرات والده المفاجئة، زادت الشجارات بالمنزل وتصاعد الأمر حتى بدأ والده يسبه ويضرب والدته ضرباتٍ وركلاتٍ عِدة جعلته يمقت والده كل المُقت، لكن مُقته لم يدُم طويلًا، حينما أصرَّت والدته على الطلاق وتدهوَّرت حالة والده أكثر.

وفي ليلة من الليالِ، كان بكر المراهق يتجوَّل بالمنزل في وقتٍ متأخرٍ من الليل قطعه نواحٌ صادرٌ من المكتب الخاص بوالده، توقف ليرى سبب هذا النواح ويتفاجأ بالدموع الغزيرة المنسابة على وجنتي والده بطريقة فطرت قلبه، كان يضع سماعة الهاتف على أذنه ويستجدي مالك المتحف بصوَّت يائسٍ غمر بكاءه:

-بقولك التمثال لازم يرجع .... التمثال هو السبب في كل حاجة...

بعد استماعه لتلك الكلمات، أدرك وقتها خطورة الموقف، وسبب التغيرات التي طرأت على والده، اتضح أن هذا التمثال الأثري ملعونًا، ووجوده خارج المقبرة سيحيل حياتهم وحياة والده إلى الجحيم.

طوال الليل كان يبحث عن سِر هذا التمثال حتى عرِف أسطورته وأدرك ضرورة إعادته إلى مقبرته، وفي صباح اليوم التالي، اتجه بسُرعة إلى جاره ورفيق دربه رامي، أخبره عن تلك اللعنة وضرورة إعادة التمثال، وكان يعلم أن رامي يُصدق

الماورائيات والأمور الخارجة عن المألوف، حتى أنه يتذكر أن رامي أخبره ذات يومٍ أنه يريد العمل بالزار لشدة تعلقه بتلك الأمور.

وفي تلك الليلة، اتفق كليهما على إعادة التمثال قبل فوات الأوان، ولأن بكر مُتعدد العلاقات رغم صِغر سنه، استطاع بمهارته الاجتماعية أن يتواصل مع حارس الأمن الذي يعمل بالمتحف والذي سهل دخولهما بعد أن أخبره بكر بضرورة إعادة التمثال وكم أن هذا قد يُشكل خطرًا على حياة والده وربما حياته هو الآخر.

دلف بكر ورامي المتحف وتحركا بنعومة صوُب التمثال المُحاط بصندوقٍ من الزُجاج المتين الذي حطمه رامي وأصدر ضجيجًا انطلقت معه أصوات الإنذارات، لكن فرد الأمن ساعدهما على الهرب وأخفى تسجيل الكاميرات جيدًا.

عاد بكر إلى المنزل مع اقتراب الساعة إلى الثانية عشر مساءً، هرع إلى أريكة البهو التي ينام عليها والده _بعد أن تشاجر مع زوجته بفضل تلك اللعنة _ وأيقظه بهلع حتى يُريه ذاك التمثال:

-يا بابا .. يا بابا إصحى ... أنا جبت التمثال

ظنٌ والده لوهلة أنه داخل أحد أحلامه لكن دفعات بكر أعادته للواقع وجعلته يسأل بحيرة:

-تمثال إيه ؟... وجبته إزاي ؟

لم يجد بكر وقتًا للأسئلة وآراد الانتهاء من تلك اللعنة بأسرع ما يُمكن؛ جذب ذراع والده حتى يثب عن الأرض ويستمع له:

-مش مُهم ... المهم إننا لازم نرجعه المقبرة بُسرعة

تعجب والده من معرفته للأمر وآراد أن يشكره على تلك الخِدمة لكنه لم يجد الوقت لذلك، اندفع بجسده صوُب الباب ليفتحه ويستقل سيارته متجهًا إلى الصحراء حيث توجد تلك المقبرة، فعليه إعادة التمثال قبل أن تتطوُر تلك اللعنة أكثر.

وعندما وصلا جوف الصحراء، كان الآوان قد فات، وانتهت اللعنة بموُت والده، لكنه استطاع إعادة التمثال تنفيذًا لكلمات والده لعدم انتقال اللعنة لمن يستحوِّذ على التمثال...

انتهى بكر من سرد الحكاية على صوُت البُكاء الحارق المُنبعث من ميادة التي انتهزت الفُرصة لتبكي على نعي والد بكر الذي لم تره ولو مرة واحدة ولا تعرف اسمه حتى.

-يعني هو مات ؟....

قالتها بحسرة واصلت معها البُكاء أمام نظرات بكر المُرتابة التي شك معها للحظة أن بها خطبٌ ما لكن لارا تدخلت لإنقاذ الموقف:

-معلش هي حساسة شوية...

تقدمت بضع إنشاتٍ بجذعها حتى تسأله بجدية:

-هي اللعنة دي يتتنقل ؟

أومأ بكر بخزيٍ وهو يُجيبها:

-أيوة .... بعد ما اللعنة تقضي على صاحبها وتقدمه قُربان لأوزيريس إله الموت... بتتنقل لتاني حد سبب في منع التمثال من رجوعه للمقبرة

ما إن أدلى تلك الكلمات حتى انتابتهم هالة من الصدمة، تغافلوا عن الشِق الثاني من حديثه ولم يلفت انتباههم سوى بضعة كلماتٍ فقط جعلت فخر يردف باندفاع تمنى معه بُطلان شكوكه:

-قُربان !!... هو اللعنة ... بتقضي على صاحبها ؟

كانت كلماته مُتقطعة ولو وجد فُرصة للبكاء والنواح لما انخرط فيهما حسرة وخوفًا من الإجابة التي لا يرغب بسماعها، بل يدعو ربه أن يكون ما فهمته أذناه خاطئًا، لكن بكر أحبط رجاءه بكلماته التي نزلت عليهم كالصاعقة:

-اللعنة بتستمر لمُدة سبع أيام بس .... بعدها أصحاب اللعنة بيموتو زي والدي....

الفصل الخامس (عندما يقع الإنسان في مُستنقع أفكاره)

كنت أعتقد أن حياتي تغمرها شمسٌ ساطعة، لكن الحقيقة أن ما يغمرها هو سُحبٌ غائمة...

سقطت فكوكهم عدة أمتارٍ إلى أسفل حالما نطق بكر بتلك الكلمات الصادمة، الموت !! ما أصعب هذه الكلمة على اللسان، وما أصعبها عندما تتعلق بهم، هل حقًا سيلقاهم الموت بعد أقل من سبعة أيام !! أم أن والد بكر توُفي لسببٍ آخر وهو ظنه بسبب التمثال ؟

يتمنوا حقًا أن تضحى تلك الشكوك صائبة، لكن يبدو أن الحياة ستقذفهم بوابلٍ من العقوبات بسبب طمعهم ورغبتهم من الانتفاع من ذاك الأثر الثمين، لم يكن يجب أن يعبثوا بما لا يعنيهم، ولم يكن يجبوا أن يستمعوا إلى تلك النداءات القابعة بداخلهم والتي تُخبرهم أن يسيروا خلف النيران حتى ينعموا بالثراء، وها هُم الآن، باتو في مُنتصف النيران ولن يخرجوا منها أحياءً إلا بمُعجزة.

-هنمــوت!!

بصق باسم تلك الكلمات بصدمة قطعها فخر بضربته الحادة على كتفه كي لا يفشي سرهم، لن ينكشف سرهم على يد هذا الأحمق.

أدرك باسم ما اقترفه من خطأ فحمحم ليُعدل من حديثه بتلعثمٍ طغا على خوفه:

-أأ...أقصد إللي عنده اللعنة هيموت ؟

حاول تغيير نبرته إلى سؤالٍ حتى لا يشُك بهم بكر، فيكفي تلك النظرات الحائرة التي يُطالعهم بها منذ وطأت أقدامهم هذا المنزل.

أومأ رأسه بضيقٍ تذكر معه ما حدث لوالده وكيف لقي حتفه أمامه في نفس اللحظة التي أتو فيها إلى تلك المقبرة الملعونة، بعد فترة وجيزة من الصمت تحوّلت وجوههم

إلى اللون الأصفر نتيجة الهلع، فليس يسيرًا على المرء أن يُدرك أنه سيلقى حتفه بعد أيامٍ قليلة.

-هو مفيش طريقة ننهي بيها اللعنة دي ؟

سألته لارا بتهذيبٍ ونبرة ثابتة لم تُثر المزيد من شكوكه أثناء إجابته الواثقة:

-الطريقة الوحيدة هي إن التمثال يرجع مكانه ... عند المقبرة...

———————————————

-وهنعملها إزاي دي بقى ؟ هنرجع التمثال إزاي واحنا بِعناه ؟

قالتها ميادة باندفاعٍ كادت تُذرف معه دموعها لولا تدخل فخر الذي قال بتقرير:

-مفيش حل غير إننا نروح لمحل الأنتيكات ونجيب من عنده التمثال ونرجعله فلوسه ... إنتو أكيد لسة مصرفتوش الفلوس مش كدة ؟

أومأ الجميع فيما عدا باسم الذي أسبل بعينيه بارتباكٍ حاول إخفاءه لكنه فشل فشلًا ذريعًا وبات كالمجرم الذي تم إلقاء القبض عليه مُتلبسًا.

-إيه .... إنت لحقت تصرف اتنين مليون جنيه ؟

سأله فخر بعدم تصديقٍ أحبطه باسم بتصريحه الأحمق:

-لأ ما أناا ... فاكرين الفلوس إللي قولتلكم حطيتها في الغسالة ؟

توقف الجميع عن السير ليُحدقوا به في صدمة تجمعت معها الشكوك داخل رأسهم، بل تجمعت مخاوفهم.

-إنـ... إنت كُنت بتتكلم عن الفلوس دي ؟

لم ينبس ببنت شفة وبقيت عوالم البلاهة تلوح على وجهه حتى أحاطه فخر بوٌدٍ لم يعهده من قبل، ففي حالاتٍ أخرى، كان ليُفجر هذا الأحمق على تلك الحركة، لكنه لا يعرف لمَ الشعور بالغضب من الآخرين لا يأتيه أبدًا، بل ويجعله يتصرف معهم بوٌدٍ وتهذيب أكثر كما لو أن الجميع بمثابة أشقاءه الذي لن يغضب منهم أبدًا.

-ولا يهمك يا صاحبي .... أنا هروح معاك ونلحق كام مليم من اللي طلعتهم من الغسالة ... وبكرة الصُبح نروح كلنا محل الأنتيكات، لسة قُدامنا خمس أيام ... عايزين نلحق نرجٌع فيهم التمثال للمقبرة.....

____

أسدلت السماء ستارها وباتت النجوم الزاهية تتألق في سماء سوداء صافية حمٌلت معها الهدوء والسكينة رغم الاضطرابات التي تدوٌر داخل جميعهم خاصة هي.

تجلس لارا على فراشها الوثير ومعها إطارٌ اشتمل على صورة لفتاتين بالعاشرة والثامنة من عُمرهما تضع كُل واحدة منهما ذراعها على كتِف الأخرى ويبتسمان ببراءة لهذا المصوٌر الذي التقط لهما تلك الصورة ولم يكن يعرف أنها ستظل محفورة داخل عقلها.

ملٌست لارا بأناملها على واحدة من الفتاتين لتتذكر يوم التقاط تلك الصورة وكم كانت سعيدة وهي تلهو مع بقية الفتيات في عُمرها مع أول يومٍ من عيد الفِطر المبارك.

استنشقت مُخاطها وحاولت حجب دموعها من الانزلاق وإفساد تلك الصورة بحسرتها ورغبتها الشديدة بعوٌدة هذه الأيام، فلا أحد يعلم كم كانت مثابرة ومرحة وشديدة التهوٌر والجرأة، لكنها تتحوٌل في ليلة وضحاها إلى فتاةٍ تخشى ظلها وترتعد من أقل الأمور، وكانت هذه الصورة من أسباب تحوٌلها إلى تلك الفتاة الضعيفة.

كفكفت دموعها بسُرعة ما إن سيطرت عليها تلك اللعنة وذكٌرتها بأنها الآن لن تخشى شيئًا وربما تنجرف إلى أفكارها المأساوية وتُنهي حياتها التي ستنتهي قريبًا على كل حال، فهي لا تريد انتظار تلك اللعنة حتى تقضي عليها، لكنها في الوقت ذاته، لا ترغب بالاستسلام وستفعل أي شيءٍ من أجل المواجهة، فذاك أيضًا جزءٌ من لعنتها.

قطع وصلة انغماسها في أفكارها السوداء، صوُّت هاتفها الذي صدح برقم ابنة خالتها؛ أجابت بسُرعة على الهاتف وحاولت حجب دموعها وبكاءها الصامت حتى لا يظهر على نبرة صوُّتها ويجعلها مبحوحة متقطعة.

-ألو يا ميادة

قطُّبت حاجبيها بانزعاج ما إن داهمها صوُّت بكاءٍ مريرٍ يأتي من الجهة الأخرى، فكانت ميادة تجلس على فراشها وحولها المحارم المتناثرة في كل مكانٍ لتخلق بجوارها هضبة التِبت الأخرى.

-في إيه يا ميادة ؟

لم تكن ترغب بالبُكاء أمام ابنة خالتها، لأنها تعلم جيدًا أن العكس ما سيحدث.

-إحنا هنموت يا لارا ... هنمـــوت

قالتها ميادة بصوُّتٍ أجش تمخطت بعده وواصلت بكاءها المرير وسط زفرة لارا الحارقة التي تُريد أن تُغلق الهاتف ولا تستمع للمزيد من السلبية، فيكفي ما بها.

-متخافيش يا ميادة ... ان شاء الله هنرجّع التمثال

أومأت ميادة برأسها إيجابًا ولم تتوُّقف عن البُكاء حتى أردفت لارا بنفاد صبر:

-خلاص بقى في إيه تاني ؟

انتشلت ميادة محرمًا وحاولت كفكفة دموعها لكنها فشلت فشلًا ذريعًا ووجدت لسانها يقول:

-أصل ضُفري اتكسر...

واصلت البُكاء كطفلة صغيرة فقدت لُعبتها العزيزة، وكانت لارا تُغلق عينيها في نفاد صبرٍ ثم تُبعد الهاتف عن أذنها حتى لا يؤذيها صوّت بكاء ميادة ويجعلها تُصاب بالصم:

-بقولِك إيه يا ميادة ... اقفلي دلوقتي عشان فخر بيتصل

قالتها ما إن أبعدت الهاتف عن أذنها ولاحظت اسم فخر يُزين الشاشة وكأنه يُحاول الاتصال بها؛ أومأت ميادة رأسها وأغلقت المكالمة لتستكمل بكاءها وحدها وسط محارمها وتبدأ مكالمة أخرى للارا لكن هذه المرة مع فخر، فما إن آجابها حتى قال:

-كويس إنِك رديتي ... أصل أنا من ساعة ما رجعت من عند باسم وأنا كنت عايز اتصل بيكي عشان ابلغِك باللي حصل ... بس عملت لنفسي نسكافيه والواد ابن الحرامية طلع مديني نسكافيه مضروب ... فروحت_

كانت تعلم أنه لن ينتهي من الحديث لذلك تدخلت بجدية:

-في إيه يا فخر ؟

حمحم فخر مُعتذرًا حتى يدخل في صُلب الموضوع بجدية تُعادل جديتها ولو كانت تحمل الرغبة في الحديث أكثر:

-لما كنت عند باسم، أنقذنا حوالي مليون ونُص .. بس في نُص مليون باظو خالص ومش نافعين، عشان كدة بفكر آخدهم قرض من البنك على ضمان عربية باسم ... المهم يعني ... بُكرة الساعة تمانية الصُبح هنروح محل الأنتيكات، فمتنسيش تجهزي الفلوس....

أخبرهم الجميع أن الحياة لا تتوّقف على شيء، لكن في حالتهم، ستتوّقف حياتهم بسبب شيءٍ بسيطٍ وهو هذا التمثال....

ما إن وصلت عقارب الساعة إلى الثامنة، كانت أقدامهم تقف مباشرة قبالة المتجر الخاص بالأنتيكات، لم يكن يجب أن يُضيعوا المزيد من الوقت وأمامهم فقط خمسة أيام، أي هُم باليوم الثالث، وإذا مرّت الأيام دون إعادة التمثال، فلن ينتهي الأمر على خير.

كان فخر يتوّلي القيادة هذه المرة بسبب تلك اللعنة التي تدفعه للحديث مع الجميع، كان يقف قبالة التاجر ببسمة هادئة على ثغره ألقى معها السلام بوُدٍ ثم تطرق بعدها إلى الموضوع بجدية:

-من كام يوم كدة ... بعنا تمثال له جناحين كُبار وكان شكله أثري ... ممكن أعرف التمثال ده فين ؟

قطّب التاجر حاجبيه بحيرة وهو يُطالعهم ويتذكر أين رآهم مُسبقًا، لكن ذكرياته لم تطل لأنه يتذكرهم جيدًا، فبالطبع هم أصحاب هذا التمثال الأثري الذي لن ينساه بحياته.

-أاه ... قصدك على تمثال مردوخ ؟

أومأ فخر إيجابًا ليجد التاجر يُبعد أنظاره عنهم بلامبالاة صريحة ويُخرج دفتر معاملاته متفوّهًا:

-التمثال اتباع ... كان فتحة خير عليا ... أول ما شافه الاستاذ خليل ... اشتراه علطول

سقط فك فخر في صدمة جعلت قدماه كالهلام وجسده رخوًا على وشك التحوُّل إلى الرمال، لم تترك الصدمة بقيتهم، لكنها اجتمعت مع خفقات قلوبهم وذعرهم، فآخر حلولهم لعودة التمثال، يبدو أنها ذهبت مع أدراج الرياح.

اقتربت لارا صوّب التاجر لتتدخل باندفاع:

-اتباع !!... مين إللي اشتراه ؟

كانت نبرتها أشبه بمُحققٍ يستجوِّب واحدٌ من أخطر الإرهابيين، وتلك النبرة جعلت التاجر يطالعها في حيرة أوقفها فخر بنبرته الودودة:

-معلش أصلها ... كانت عايزة تعمل بحث عن التمثال قبل ما يتباع

تدخل باسم بالحديث حتى يسأل:

-طب ممكن رقم إللي اشتراه ؟

تنهد التاجر بنفاد صبرٍ أردف معه باصرار:

-للأسف مينفعش أدي بيانات العُملة بتوعي لحد تاني

علُقت ميادة حتى يُخبرهم التاجر ولو دليلًا بسيطًا عن ذاك الذي استحوَّذ على أحلامهم:

-على الأقل قولنا اسمه بالكامل إيه ؟

أومأ التاجر بهدوءٍ ووجد أنه لا يوجد مانعٌ من الإفصاح عن اسم المُشتري، ففي النهاية، لن يستطيعوا أخذ التمثال منه حسب ما يعتقد:

-اسمه الأستاذ خليل أبو الدهب

اتسعت حدقتي باسم في ذهولٍ أردف معه:

-إيه !!... خليل أبو الدهب!!

لاحت الصدمة على وجه ميادة هي الأخرى وكأنها تعلم أيضًا هذا الرجل الذي يتحدث عنه التاجر، حيث بادلت نظراتها المذهولة بنظرات باسم الذي استشعر أنها تعرفه هي الأخرى، فكانت تهمس لتتأكد:

-هو قصده على...

-يمكن

قالها باسم بشكٍ زاد من حيرة كلًا من فخر ولارا التي تدخلت باندفاع:

-في إيه ؟... هو إنتو عارفين الراجل ده ؟

أومأت ميادة رأسها بثقة قالت معها وهي تتحرك بأقدامها خارج المتجر:

-ده رجل أعمال مشهور ... تعالو معايا وأنا هحكيلكم....

_____

-يعني خليل أبو الدهب ده ... أكبر تاجر دهب في مصر ؟!

قالتها لارا لتتأكد من شكوكها وتجد ميادة تومیء برأسها إيجابًا ليتدخل فخر بالحديث مُقررًا:

-طب والعمل ؟... لازم نرجّع التمثال ده منه ؟

علّق باسم على حديثه ليبثهم كُتلة من السلبية كفيلة بجعل العبقري يفشل في اختبارٍ للأطفال:

-نرجع إيه ؟... دا ساكن في قصر وفي حُراس قد شعر راسي .... ومُستحيل يتخلّى عن حاجة من حاجاته ... يعني من الآخر كدة ... كلنا هنموت..

ثم أبعد نظراته عنهم ليواصل الحديث بحسرة كسيدة تولّول على نعي زوجها:

-يا بختك الاسود يا باسم ... هتموت غبي بعد ما كُنت دُنجوان...

تدخلت لارا بحديثه قبل أن تنتقل تلك الطاقة السلبية إلى ميادة وتجعلهم يسيرون داخل نهر النيل بدلًا من جواره:

-ما تخرس بقى إنت كمان ... كفاية طاقة سلبية ... إحنا إن شاء الله هنرجِّع التمثال... حتى لو سرقناه

-هنسرقه إزاي وبيقولك في حراس كتير وإننا مش هنعرف نقنعه يرجعهولنا

جادلتها ميادة بتلك الكلمات المتُحسرة والتي كادت تجعل لارا تنفجر بوجههم وتكاد تتركهم لتقتل هذا المدعو بخليل وتأخذ منه التمثال عنوة ثم تهرب خارج البلاد وتتجه للعمل في عصابة إرهابية، هذا إن لم تُنهي حياتها قبل ذلك.

قطع فخر جدالهم عندما توَّقف عن السير ليلتفت نحوهم متفوِّهًا بحكمة:

-أنا جاتلي فكرة ... إحنا هناخد التمثال .... بس مش هنسرقه، ولا هنشتريه من خليل

قطُّب الجميع حاجبيه بحيرة حتى سألت لارا بفضول:

-أومل هنعمل إيه ؟... إحنا أصلًا منعرفش عنوان بيته

رسم بسمة فخورة على ثغره قبل أن يقول:

-هو أنا قولتلكم قبل كدة أنا في هندسة إيه ؟

نفى الجميع برأسه ليواصل هو بتبهنس:

-في هندسة برمجيات ... يعني أقدر اعرف كل حاجة عن اللي اسمه خليل ده بمُجرد ضغطة زُرار

التفت ليواصل سيره صوٌب سيارته ونظرات الحيرة والابهام لا تنفك تترك وجوههم وهم يتبعونه محاولين السير على نفس وتيرة سيره:

-وده بردو هيفيدنا في إيه ؟

سألته ميادة رغبة في ملإ فراغات عقلها ليُجيبها فخر وهو أمام سيارته مباشرة:

-من الآخر كدة ... عندي فكرة نجيب بيها التمثال .... ومحدش هيعرف حتى اننا خدناه ... بس لازم تنفذو إللي هقول عليه....

الفصل السادس (ماتت الخُطة بسُم الحماقة)

لا تنسى أن الشجاعة تنبثق من الخوف، والخوف يتلاشى بالمواجهة، فلا تخشى التُجربة، ولا ترتبك وأنت تسعى للنجاة من براثن هذه الحياة....

أشرقت شمس يومٍ جديدٍ، وكانت السماء صافية يتخللها ربوعٌ من النسمات العليلة والسُحب الكثيفة، ووسط هذه الحشائش الخضراء، كانت تندثر ميادة برفقة لارا عازمتين على بدء الخِطة في يومهم الرابع بتلك اللعنة، فلا يجب أن يستسلموا لمَ وضعهم القدر به، أو ربما وضعهم الطمع والجشع بتلك التهلكة، لكنهم في الحالتين لن يستسلموا أبدًا حتى تتنهي تلك اللعنة.

رفعت ميادة المجهر صوٌب ذاك القصر الفخم الذي تظُن لوهلة أنه مُطرز بالذهب والفضة، فمالك القصر هو أشهر تاجرٍ للذهب في مِصر، ومن أغنى ثلاثة أشخاصٍ في الوطن العربي، وربما من أغنى عشرون شخصًا على مستوى العالم، أي أن بإمكانه شراء العالم وما به إذا آراد ذلك.

تقدمت لارا بضع خطواتٍ للأمام حتى تستطيع رؤية ما يحدث داخل القصر بواسطة النافذة، لكن ميادة ظنُت أن تقدمها للأمام قد يجعلهما ظاهرتينٍ للعيان وربما يُكشف أمرهما؛ لهذا السبب جذبت ذراع لارا بسُرعة وآعادتها مكانها وهي تقول بهمس:

-إرجعي يا لارا ... كدة ممكن نتقفش

احتدت ملامح لارا وهي تدفع ميادة بعيدًا عنها وتقول:

-محدش هيعرف يعملي حاجة .... وأنا أصلًا مش خايفة من حد

كان صوٌتها مسموعًا يكاد يكون مُرتفعًا ويكاد يُفسد خطتهما مما جعل ميادة تحتد قليلًا وهي تهمس:

-يا لارا وٌطي صوٌتِك بقولِك كدة هيمسكونا

كانت كلماتها المُرتعدة كفيلة بإشعال كتلة الشجاعة المُفرطة التي قد تتسبب لهما بالأزلام.

-طب والله ما هوّطي صوّتي .... وهقُّرب من القصر كمان ... إنتِ فكراني خايفة ولا إيه

ارتفعت نبرة صوُّتها أكثر وكادت تُنفذ قراراتها المجنونة لولا تدخل ميادة باللحظة الأخيرة عندما لاحظت واحدٌ من الحُراس يبدو أنه انتبه لوجودهما.

-مش وقته الله يخليكي إحنا مقُدمناش وقت كتير

قالتها ميادة بغضبٍ يتخلله الهلع وهي تدفع لارا بعيدًا عن تلك البُقعة وبعيدًا عن أنظار هذا الحارس الذي بدأ يُراقبهما بغرابة، تجاهلت أيضًا تذمرات لارا وإصرارها على لكم هذا الحارس وإفساد الخُطة.

-سِبيني بقولك ... هروح أضربه وهو مش هيبصلنا تاني

توُّقفت ميادة في بُقعة نائية بعيدة عن أعين الجميع حتى تستطيع التحدث مع تلك العنيدة بأريحية، أو ربما بجِدة تُعادل الجنون الذي تكاد ترتكبه لارا:

-اسكتي بقى .... عايزين ننفذ إللي قالولنا عليه

عبثت بعدها بجعبتها ثم بحقيبتها الصغيرة بحثًا عن جوالها الذي يبدو أنها فقدته في مكانٍ ما؛ لاحظت لارا بحثها المُستميت مما جعلها تسأل بفضول:

-في إيه ؟

توُّقفت ميادة عن البحث وهي تُجيبها بيأس وملامح عابسة:

-مش لاقيا الموبايل بتاعي....

____

داخل سيارة متوّسطة الحجم من ماركة " فيات "، يجلس فخر على مِقعد القيادة أمامه مِطعمٌ فاره يتوّسط المدينة ويبدو أنه من المطاعم الكلاسيكية الرائقة، فقد كان يُراقب رجلٌ مهيبٌ يرتدي بزة فاخرة ويُصافح رجلٌ آخرٌ _لا يختلف عنه بالفخامة_ مصافحة تُشبه مصافحات الرؤساء.

كان يُدقق النظر على رجلٍ منهم، لديه خُصلات شعر بُنية يتخللها بعض الخُصل البيضاء التي لم تستطع صبغة الشعر تغطيهم، وإضافة على ذلك، تهلهل وجهه بسبب التجاعيد التي تزداد كلما ابتسم ابتسامته المُبتزلة، كان من المُفترض أن يُراقب تحركات رجل الأعمال هذا ويدوّن باسم الملاحظات التي استرفداها من تلك المراقبة، لكن يبدو أن باسم مشغولٌ بشيءٍ آخر.

التفت فخر نحوه ليرى ما الذي يوّقفه عن تأدية المُهمة، وجده يعبث بالهاتف الخاص به ثم يضع الهاتف على أذنه ليستمع إلى ضجيج يُصدر من بُقعة أخرى ينطلق منه موسيقى كلاسيكية لا معنى لها.

-بتعمل إيه ؟

سأله فخر بهدوءٍ ووّدٍ، ليجد أن باسم يُبعد الهاتف عن أذنه متفوّهًا بصدق:

-يا عم عمال اتصل بميادة ومش بترُد عليا .... عايز أقولها إنها نسيت الموبايل بتاعها معايا وإنه عمال يرن من الصُبح...

كاد يقضى الانفجار على فخر بسبب تلك الحماقة، لكنه تذكر تلك اللعنة وهو يجاري حديثه بسؤالٍ:

-وإنت مشوفتش مين إللي بيرن عليها ؟

نفى باسم بيده بكبرياءٍ قال معه:

-لا يا عم ... دي حاجة متخوُصنيش، أنا أكيد مش هشوف مين إللي عمال يتصل بيها ده في نفس الوقت إللي أنا بكلمها فيه

قطُّب فخر حاجبيه وتصلُّب مكانه لعدم وجود كلماتٍ داخل عقله ليتلوها على تلك الحماقة.

لم يفهم باسم نظراته الحائرة وواصل محاولات اتصاله بميادة مُعللًا:

-أنا مش فاهم بجد مش عايزة ترُد على الموبايل ليه ؟

هنا ولم يعُد يتحمل فخر، وجد لسان حاله ينفجر قليلًا وهو يقول بتنبيه:

-يِمكن عشان موبايلها معاك مثلًا!!

توُّقف باسم عن العبث بهاتفه ليلتفت نحو فخر بحاجبين مُقطبين ونظرة الطالب الغبي بعد أن شرَح له المعلم المسألة الصعبة في الرياضيات للمرة المئة.

-يعني إيه ؟ .... إيه علاقة موبايلها إللي معايا بالـــ....

بتر حديثه عند تلك الكلمات في محاولة مميتة لاستعادة ما تبقى من عقله ومحاولة التفكير في تلك المُعضلة المُستعصية، لكن فخر تدخل حتى يوُقفه وبداخله يشفق عليه وعلى كيفية مواصلة ما تبقى من أيام اللعنة بتلك العقلية وهذا التفكير الأحمق.

وضع فخر يده على الهاتف الخاص بباسم محاولًا انتزاعه من بين أصابعه ومواصلة تنفيذ الخِطة بقوله:

-سيب إللي في إيدَك ده وخلينا نكمل ... إحنا كدة كدة هنتقابل بليل....

اليوم السادس....

بعد أيامٍ قليلة من البحث المرير، استطاعوا أن يجمعوا بعض المعلومات المُهمة المُتعلقة بخليل أبو الدهب، معلوماتٍ تساعدهم على العثور على طريقة مناسبة لانتزاع التمثال من قصره العريض دون الوقوع في براثن الشِرك، أو انتهاء حياتهم بين القُضبان.

خليل أبو الدهب، 56 عامًا، وُلد في محافظة البحر الأحمر، وكان في أسرة متوّسطة الحال حتى قرر والده الانتقال إلى القاهرة للعمل في المقاولات، كان طفلًا طموحًا بارعًا في الإقناع ويُحب الأموال أكثر من عائلته، توُفيت والدته وهو بالسادسة عشر من عُمره وتزوج والده من سيدة أعمالٍ عريقة ساعدت والده في فتح شركته الخاصة بالاستيراد والتصدير، كما أنجب منها فتاتًا وصبيًا.

التحق بكُلية التجارة بالجامعة الأمريكية، وكان يعمل مع والده في وقت الفراغ حتى اكتسب خِبرة واسعة في الإدارة والتخطيط، وفي آخر عامٍ له بالجامعة، تعرُّف على صائغ بارع في عمله قرر أن يُشاركه في مِتجر الذهب الذي ساعده والده على اقتناءه، وبسبب مهاراته العالية بالتسويق، استطاع أن يرتقي بمتجره ويفتتح أكثر من فرع فخمٍ لهذا المِتجر، وكان الفنانون ورؤّاد الأعمال من حوُّل العالم يأتون متاجره خصيصًا من أجل شِراء الحُلي والمجوهرات.

وفي أقل من عشرة أعوام، استطاع أن يجني ثروة هائلة من الأموال، وفي عام 2010، بظل انتشار الفساد وتدهوُّر السُلطة، استغل وجود سياسة الخصخصة _والتي تعني نقل الخدمات والمُمتلكات العامة أو القِطاع الحكومي إلى القِطاع الخاص_واستثمر في منطقة حِمش التي تقع غرب مدينة مرسى علم بالصحراء الشرقية وعلى بُعد ألف كيلو متر من القاهرة، ووصل إنتاج الذهب فيها إلى 160 كجم عام 2010.

شارك شركة مارتز القُبرصية وبعض المستثمرين السودانيين في هذا المنجم وفي شركة حِمش لمناجم الذهب، لكنه بخبرته وبراعته اللا حدود لها، استطاع الاستحواذ على نصيب الشركة القُبرصية وبعض المستثمرين السودانيين، وأضحى لديه أكثر من نصف أسهم الشركة مما مكنه لفتح شركته الخاص بعد ثورة 23 يونيو، وكانت

شركته من أكبر شركات الذهب عالميًا، ووصلت إيراداتها إلى أكثر من مليار دولار سنويًا.

كل هذه المعلومات تم تجميعها بواسطة مُحركات البحث وقُدرة فخر الفائقة على استخدام الحاسوب، لكن ما جمعوه خلال تلك الأيام، كانت معلوماتٍ تتعلق أكثر بحياته الشخصية، مثل أنه تزوَّج من فتاة اسكُتلاندية وأنجب منها فتاتين فائقتي الجمال لكنه انفصل عنها مُنذ عام وذهبت الفتاتان للعيش مع والدتهما في اسكتلندا، كما أنه يذهب إلى العمل بعد الظهيرة ويعود قبل غروب الشمس ليستكمل باقي الإجراءات من داخل المنزل.

لديه صديقٌ واحدٌ يعرفه منذ الطفولة لكنه لا يتحدث معه بالفترة الأخيرة بسبب انعدام ثقته بالآخرين، فدائمًا ما يأتي الشك والخوف بسبب ظنِّه أن الجميع يطمع في ثروته الطائلة.

يقطن وحده في هذا القصر الكبير، بعد أن توُفي والده قرابة الخمس أعوام، وانتقلت زوجة والده للعيش بالإمارات لترعى أشقاءه وبقي وحده بالمنزل ومعه خادمة واحدة تأتي أربع مراتٍ في الأسبوع وترحل قبل الساعة التاسعة مساءً، ناهيك عن وجود العديد من الحُراس حول المنزل الذي لا يتركونه ليلًا أو نهارًا، ويتم تغيرهم بعد شهرين، كما يُجري اختباراتٌ صعبة قبل أن يختار المناسب لحراسته.

وأكثر ما يُميز تلك الشخصية، هو حُبها لاقتناءها الأشياء الفاخرة والأثرية، فدائمًا ما يتباهى بما يبتاعه من آثار وأحيانًا ما يتم بيع آثاره بالمزاد، لكنهم متأكدون أن التمثال داخل منزله الآن، فقد شاهدته ميادة أثناء مراقبتها للمنزل.

طرق فخر الباب بضع طرقاتٍ قطعها فتح المنزل بواسطة الخادمة الفلبينية التي قادتهم إلى بهوٌ عريقٍ يجمع ما بين الكلاسيكية والحداثة، يجلس خليل على مِقعدٍ وثيرٍ يرتدي بزة فاخرة وجذاءً لامعًا كما لو كان يعلم أنهم سيأتون المنزل.

قابلهم خليل ببرود وبقي جالسًا على مِقعده يتلذذ بتعاليه عليهم، لكن فخر، كان يعلم أنه سيلقى تلك المعاملة لذلك حافظ على وُده_ أو أن اللعنة لن تجعله غير ذلك_ وهو يقول:

-أنا المُخرج عبد الله أباظة ... ودي المُذيعة نِهال السيد ... ودول من فريق الإعداد

قالها وهو يُشير على لارا ناعتًا إياها بنِهال حتى لا ينكشف أمرهم، ثم يُشير على كلٍ من باسم وميادة اللذان تحلُّيا بالصمت وفقًا للخطة.

-إحنا من برنامج الحدوتة وما فيها .... وأنا إللي كلمت حضرتك عشان نعمل اللقاء إللي هينزل في الرنامج

أنهى حديثه ببسمة واسعة أخفت ارتباكه وجعلته يتشبث بكاميرته التي استعارها من شقيقته مقابل الظهور أمام جمهورها الوهمي على أنه زوجها، وهذا فقط حتى يتخلص من تلك اللعنة.

ابتسم خليل ابتسامة مُتعالية وثب بعدها عن المِقعد لأنه على عِلمٍ بأن تلك المقابلة سيجني من وراءها أموالًا طائلة كانت تتصلط عينيه عليهما الآن.

التفت فخر بجذعه لينتشل الحقيبة الجلدية التي تحتوي على الأموال الخاصة بالتمثال على أمل أن تضحى تلك الأموال عمولة اللقاء_كما اتفق معه فخر_فتح الحقيبة الجلدية أمام عيني خليل المتلألئة كما لو أنها أول مرة يرى فيها أموالًا بهذا الكم، فحُبه للمال لن يقل ولو كان يصبوا على بحرٍ منه.

-دول العشرة مليون إللي اتفقنا عليهم ... بس الأول نجري المقابلة

أومأ خليل برأسه متفوِّهًا وهو يُشير على الأريكة:

-أه طبعًا .... اتفضلوا

قبل أن يتحرك فخر التفت نحو باسم وميادة حتى يهمس بأذنيهما بصوٌتٍ خافتٍ جاد:

-أنا ولارا هنعطله ... وإنتو روحو هاتو التمثال ... بس أوّعوا حد يشوفكم

أومأ الاثنين إيجابًا ليبتعد فخر عنهما ويرفع من صوٌته وهو يقول مُقلدًا المُخرجين:

-خُدلي انسرتات هناك ... وركزلي على الميديام والكلوس

قالها وهو يُشير على بُقعة مرادة من المنزل حتى يُنفذ باسم تعليماته الوهمية ويذهب إلى هناك لالتقاط الصوُر والمشاهد رغم أن الحقيبة التي معه لا تحتوي على كاميرا من الأساس.

عاد فخر برأسه صوُب خليل ليرسم بسمة واسعة ويجلس بجواره على بُعد أمتارٍ ليُخبره ما سيتم تصوُيره في البرنامج برفقة لارا التي ستُخبره محاور اللقاء.

-بُص حضرتك ... البرنامج بيحكي عن العُظماء اللي في البلد ... زي أحمد زويل ومصطفى السيد وسميرة موسى وغيرهم .... عايز حضرتك تُبص للمذيعة وتعتبر إن الكاميرا مش موجودة .... أصل خُد بالك أنا أختي خريجة إعلام وبتصوُر فيديوهات وعندها قناة كبيرة ... أه والله زي ما بقولك ... دا أنا حتى_

ركلته لارا بقدمها حتى يتوُقف عن الحديث ويُمعن التركيز بتلك الخطة، فهو لم يأتي هنا لسرد قصة حياته؛ حمحم فخر ما ان استقبل ركلتها وأدرك أن عليه بدء التصوير قبل أن ينجرف لسانه ويُخبره ما يريدون فعله.

وثب عن الأريكة ليتجه صوُب الكاميرا التي قام بوُضعها على الحامل بعد أن علُمته شقيقته كيفية استخدامها وأخبرته بعض النصائح المُتعلقة بالمخرجين.

-يلا عشان نبدأ

قالها بتقريرٍ وإشارة للارا حتى تُخرج الورقة من جعبتها وتبدأ بمراجعة تلك الأسئلة قبل أن يبدأ التصوير وتبدأ بسؤاله العديد من الأسئلة حالما ينتهي باسم وميادة من أخذ التمثال....

بدأ برنامجهم الوهمي بمُقدمة بسيطة كتبتها شقيقته وحفظتها لارا عن ظهر قلب، انتهت من سرد المُقدمة أمام الكاميرا لتنتقل بنظراتها صوُب خليل حتى تبدأ بسؤاله:

-إزي حضرتك يا أستاذ خليل ؟

آجابها بابتسامة ودودة وكلماتٍ خافتة مُرحبة جعلتها تتطرق للمزيد من الأسئلة الافتتاحية المرحة لعلها تستطيع جذبه لأطراف الحديث، أو تعطيله بالمُعنى الأدق.

-كلمنا بقى عن رحلتك المهنية ... إزاي قِدرت تبقى من أغنى تلات أشخاص في الوطن العربي في أقل من عشر سنين ؟

رسم بسمة متبهنسة على ثغره قبل أن يُجيبها بصدِق:

-الحقيقة يعني ... الفضل يرجع لشُغلي واجتهادي الذاتي ... لولا إني اشتغلت كويس جدًا على نفسي مكُنتش وصلت للمرحلة دي

لم ترضي ميولها تلك الإجابة المتبهنسة بعد أن ظنُّت أنه سيتشكر والده الذي لم يتخلُّى عنه، أو عن زوجة أبيه التي ساعدته باكتساب المزيد من الخِبرة، أو حتى والدته التي شجعته بكلماتها، فهو قد نسب النجاح لذاته فقط وكأن من حوُّله لم يكونوا سوى ممثلين ثانويين.

-طب وبالنسبة لزوجة والد حضرتك ... هل كان ليها دور ولو صُغير في نجاحك ؟

رماها بقهقهة متعالية بدت سمِجة بالنسبة لها وهو يُقول بنفي:

-لا مرات أبوية ده إيه ؟.... هما الستات أساسًا بيعرفو يعملو حاجة ؟

كانت السُخرية والاستهزاء ينطليان على كلماته مما دفع الأدرينالين بداخل لارا التي انتابتها نوبة من الغضب إثر كلماته التي تُقلل من النساء وتُظهرهن بمِظهر الضُعفاء، وهي التي لن تقبل الاستماع إلى تلك الكلمات أبدًا، ولن تسمح بنعتها وبقية النساء بالضعف والفشل، خاصة مع هذه اللعنة.

-ليه ان شاء الله ... دا إنت يا حبيبي لولا مرات أبوك مكنتش عرفت تفتح كُشك سجاير ... ولا يعني عشان إحنا بنُقف في ضهركم هتعملولنا_

ارتفع صوُتها فجأة وباتت على شفة جرفة من الانقضاض على خليل واطاحته أرضًا أمام نظراته المذهولة.

انطلق صوُت حمحمة من فخر حتى تنتبه لارا وتتذكر أنهما لن يذيعا أيًا من تلك الكلمات، وأخبرها حتى بنظراته أن تتحلُّى بالصمت حالما ينجح باسم بأخذ التمثال.

أطلقت لارا زفرة حارقة من جوفها أعقبتها بالجلوس مُجددًا على الأريكة ومواصلة الحوار الوهمي وداخلها يفيض بنيرانٍ من الغيظ...

على جِهة أخرى، وداخل هذا القصر الفاره، كان باسم يتجوُّل بخطواتٍ هادئة وجواره على بُعض أمتارٍ قليلة، تتحرك ميادة وتتلفت يمينًا ويسارًا حتى لا تراهما تلك الخادمة، حيث كانت تُخرج هاتفها وتدَّعي التقاط اللقطات التكميلية كلما داهمتهما الخادمة بنظرة عابرة.

-أهو ... التمثال هناك

قالتها ميادة بلهفة وهي تُشير على بُقعة قريبة تحتوي على خزانة من الأرابيسك فوقها هذا التمثال يتوُسط مزهريتين أنيقتين تحتوُيان على الورود البيضاء.

هرع باسم صوُب هذا التمثال ليفتح حقيبته بأطرافٍ مُرتجفة عازمًا على الانتهاء من تلك الخُطة، وبجواره ميادة تكاد تنفطر إلى أجزاءٍ عِدة بسبب ارتباكها وارتجاف أطرافها.

أمسك باسم التمثال ليضعه داخل الحقيبة، لكنه توُقف مرة واحدة ليلتفت برأسه صوُب ميادة بعد أن داهمه سؤالٌ أحمق عليه أن يعثر له على إجابة:

-صحيح هو فخر قال نحُط التمثال بالمعدول ولا بالمقلوب ؟

قطُّبت ميادة حاجبيها إثر هذا السؤال العجيب الذي جعلها تغتاب قبل أن تقول بجهلٍ:

-معرفش .. هو مقالش أصلًا

تشبث باسم بالتمثال جيدًا لعله يعثر على إجابة لسؤاله قبل أن تنتهي تلك المُهمة:

-طب استني اروح اسئله....

يقف فخر أمام عدسة الكاميرا يحاول التقاط صورة جيدة رغم أنه يعلم أن تلك اللقطات وهذا الحوار بُرمته لن يتم إذاعته من الأساس، وأثناء انشغاله بضبط الكاميرا إذا يُداهمه صوٌت يعرفه جيدًا ولا يُريد الاستماع إليه الآن.

-فخر ... يا فخر ... إنت قولت واحنا بنسرق التمثال نحُطه في الشنطة بالمعدول ولا بالمقلوب....

انقبضت أوزار فخر وابتلع ريقه بهلع نتيجة تلك الكلمات الحمقاء التي جعلت خليل يثب بنظراتٍ مُقتضبة وأعينٍ نارية تتبادل حدقتيها ما بين باسم المُتشبث بالتمثال وعلى وجهه البلاهة، وفخر ولارا اللذان تمنيا انشقاق الأرض وابتلاعهما.

-حـ...حضرتك .... فـ..فاهم الموضوع غلط

قالها فخر بارتباكٍ جامٍ والعرق يتصبب على جبينه وداخله يُريد أن يصفع باسم كفًا، لكن نظرات خليل لم تخبو من اشتعالها وهو يصتك على أسنانه ويهتف بصوٌتٍ جهوري:

-إنتو عايزين تسرقوني !!.... يا شناوي .... يا شناوي...

بقي يُنادي على واحدٍ من الحُراس ليزداد ارتباكهم ويُدركوا جيدًا أن الخُطة ماتت، وبسُم الحماقة...!!

الفصل السابع (حيلة !!)

الخطر يُشبه الدوَّامة، يجرفك إلى قاعه ويجعلك تدور في حلقاتٍ لا نهاية لها حتى تفقد القُدرة على معرفة طريق النجاة....

ما إن نبس خليل بتلك الأوامر الصارمة حتى تيبست أقدامهم والتصقت بالأرضية بغراءٍ قوي المفعول، تبادلت نظراتهم في هلع وكانت لارا على وشك التدخل والتعارك مع الحُراس مما سيجعل المشكلة تزداد تعقيدًا وربما بدلًا من أن ينتهي بهم الأمر خلف القُضبان، ينتهي داخل المقبرة.

انهمرت الدموع بغزارة من عيني ميادة وبدأ صوُّت نواحها يتعالى مع اقتراب الحُراس نحوهم، أما باسم، فلا يزال مُتشبثًا بالتمثال ويبادل حدقتيه بين الجميع في حيرة تسآل معها عن سبب معرفتهم بأنهم يسرقون التمثال!!

التقط فخر أنفاسًا عميقة متتالية حاول معها استجماع الرفات الباقية من شجاعته أو ارتعاده الذي دفعه لاتخاذ خطواتٍ سريعة جذب معها لارا خارج القصر وهتف بأعلى ما لديه من صوُّت:

-إجـــرو

ما إن بصق تلك الكلمة حتى تدفقت الدماء بعروق الجميع وتحوَّلوا من حالة الصدمة والوجوم إلى حالة الهرب والنفاد بجلدهم، هرولَ جميعهم خارج القصر بعد أن لملم فخر مُعدات التصوير بسُرعة فائقة وأخذ حقيبة الأموال ثم هرع خارج القصر ووراءه لارا التي تركض ورائهم عنوة، وميادة التي لم تتوقف عن البكاء والولولة وهي تركض وتدفع لارا معها، أما باسم، فكان في عالمٍ آخرٍ لا يعرف لماذا يركضون لكنه يركض معهم على أمل أن يربح السِباق ويفُز بالجائزة في النهاية.

فتح فخر باب سيارته ودلف بداخلها ثم وضع مُعدات التصوير والنقود بالمقاعد الخلفية لتلتقطها ميادة وتضعها على المقعد الخالي الذي يتوَّسط ما بينها وبين لارا، آدار فخر مُحرك السيارة بينما أخبر باسم بصوُّتٍ آمرٍ أن يضع التمثال بالحقيبة حتى لا يضحى ظاهرًا للعيان في حالة الإمساك بهم.

استجاب باسم لأوامره بتيهٍ ولا تزال صوُت الأقدام تضرب جميعهم وتجعل ارتعادهم يزداد أضعافًا، هروُل باسم بسرعة صوُب المقعد المجاور لمِقعد القيادة ليستقل السيارة ويتحرك فخر بأقصى ما لديه ما إن لاحظ الحُراس يستقلون سياراتهم ويتحركون ورائهم مباشرة.

-هنموت ... هنموت كلنا

قالتها ميادة وسط دموعها لتنفجر بعدها في البُكاء كلما زادت سُرعة السيارة، وكانت لارا جوارها تصتك على أسنانها بغضبٍ عارمٍ وتراقب تلك السيارة السوداء الفاخرة التي تتحرك ورائهم بسُرعة البرق.

ترنحت أجسادهم يمينًا ويسارًا حتى بات تقيؤهم يهم بزيارتهم، تماسك باسم جيدًا وهو يتشبث بالسيارة ويُشجع فخر على المضي قِدمًا كما لو كان يُشجع فريقًا لكُرة القدم.

تصبب العرق على جبين فخر وهو يرفع من سُرعة السيارة ويعدو بين الطُرقات حتى اغتابهم أصوات سيارات الشُرطة التي التقطت سُرعتهم الفارهة والتقطت أيضًا مكالمة هاتفية مُستنجدة أنبأتهم أن أولئك لصوصٌ ويجب القاء القبض عليهم.

بات موُقفهم صعبًا في تلك اللحظة، وبدأت سيارات الشُرطة تلاحقهم وبينهم صوُت باسم الذي نبس ببلاهة:

-هو إيه إللي جاب البوليس ؟... هو مش كان بييجي في الآخر ؟

كان صوُته أقرب إلى الصياح وهم في ذاك الموقف الشائك الذي على الرغم من صعوبته إلى أن فخر لم يمنع لسانه من الإجابة:

-ما احنا مشينا جنب الرادار وأكيد أخدت مخالفة دلوقتي .... ثانيًا مش لازم البوليس ييجي في الآخر ... ساعات_

كادت حكاية ألف ليلة وليلة تنطلق من شفتيه وهو يتحدث مع باسم الذي حرُك الدوبامين بداخله ودفعه للحديث بتلك اللعنة التي تدفعه لمحاورة أي أحدٍ واجتذاب

أطراف الحديث معه أيًا كان الزمان والمكان، إلى أن هذه المرة، تدخلت ميادة بحديثهما بصُراخٍ جثيمٍ تحشرج معه صوُتها الباكي وهي تقول:

-مش وقته رغـــي

حمحم فخر باعتذارٍ واصل معه القيادة وزاد من سُرعتها ممعنًا التركيز في الطريق حتى لا يتسبب بحادث، لكنها لحظاتٌ قليلة تكاد تتعدى الثواني حتى وجد أصواتًا غريبة تنطلق من السيارة وتدفع حركتها للتباطؤ والتباطؤ حتى....

توُقفت السيارة نهائيًا عن العمل لتزداد صدمتهم وتهوي قلوبهم أرضًا، حاول فخر مرارًا وتكرارًا المعاودة في تشغيل السيارة لكن جميع محاولاته لقت فشلًا ذريعًا، وهذا الفشل جعله يضرب على المُحرك عدة ضرباتٍ وكأنه سيعمل كأي جهازٍ منزليٍ يُصيبه عُطل، لكن حتى هذه الطريقة لم تلقى نجاحًا.

-وقفت ليه ؟

سألته ميادة بعبوسٍ فآجابها هو باستنتاج:

-العربية شكلها قطعت بنزين

ما إن أدلى تلك الجملة حتى هوّي قلبها أرضًا وازداد نحيبها وضربها على رُكبتيها مما أوهم لارا أنها تجلس بجوار سيدة ريفية تنعي وفاة زوجها، ومن بعدها تبادلت نظرات الجميع وآرادوا الاختباء داخل السيارة في تلك البُقعة النائية حتى لا يعثر عليهم أحد، لكنها لحظاتٌ قليلة حتى أدركوا أن هذا الحل ليس صائبًا وأن عليهم الرحيل من هنا حتى لا تلقاهم سيارات الشُرطة.

فتحت لارا باب السيارة وهي تقول بتقرير:

-يلا ننزل نشوف أي حتة نهرب منها .... بعدين مالكم خايفين كدة ليه، أصلًا البوليس مش هيقدر يعملنا حاجة

فتح فخر باب السيارة هو الآخر على أمل إنقاذ الموقف حتى لا تزداد لارا جنونًا وتباشر بالاتصال برجال الشُرطة وإفشاء موقعهم لأنها لا تخشى هذه الحركة.

-استهدي بالله يا لارا ... إحنا مينفعش نقول لحد إننا هنا

لاحت عوالم الاستهزاء على لارا التي لوّت حنكها باعتراضٍ قالت معه بإصرار:

-ليه يعني ؟... هنخاف منهم ولا هنخاف منهم ... طب إيه رأيك بقى إني هقول للعربية إللي هناك دي إن احنا هنا ويبقو يوّروني هيعملو إيه

لم تُكذب قرارها هذه المرة وهروّلت بسُرعة حتى وقفت عِند قارعة الطريق تحديدًا أمام سيارة الشُرطة التي توّقفت لاستسلامها من البحث عنهم.

-يا جماعة ... يا بولـــيس ... إحنا إللي سرقنا التمثال .... إحنـــا... إللي سرقنـــا التمثـــال....

بقيت تلوّح بيديها وترفع من صوّتها وجوارها فخر وميادة التي ركضت هي وباسم للحاق بتلك المجنونة قبل أن يُفتضح أمرهم، لم يستطع أحدٌ منهم أن يُصمتها فبقيت تصرخ وهي تلوّح بيدها وتعترف بما فعلوه حتى أمسك فخر برسغها بحدة حتى تلتفت إليه وترمق نظراته النارية التي حمّلت وّده رغم أنه لم يُرد ذلك.

-يا لارا اسكتي بقى إحنا كدة هنتفضح

حافظت على ملامحها المُستهزئة وهي تقول بلامبالاة:

-وإيه يعني لما نتفضح ... هيجرى إيه يعني ؟ هنتحبس !... وإيه المُشكلة لما نتحبس ؟...

لم تكد تُنهي حديثها حتى وجدت صوّت سرينة الشُرطة تضرب آذانهم وتُصيبهم بالرهبة، اكتنفتهم عناصر الشُرطة من كل حدبٍ وصوّبٍ وآحاطتهم بتلك النظرات الغاضبة والأسلحة المُهددة مما جعلهم يزدردون ريقهم بهلعٍ ويرفعون أيديهم

باستسلام ويتبلمون في مواضعهم حتى كبلتهم الشُرطة بالأغلال وأدخلتهم العربة لتسليمهم للعدالة....

_____

مكتبٌ عريض تقليديٌ مُعتجٌ بالعديد من الأوراق والمُستندات المُرتكزة داخل خزانة خشبية بجوار المكتب الذي يجلس عليه ضابطًا أمامه لائحة تُشير إلى اسم " الرائد/ رأفت المليجي "، ناهيك عن صورة الرئيس المُعلقة على الحائط وجوارها العديد من الأعلام والعبارات الوطنية التي ليس لها أي أساس من الصِحة كعبارة " الشُرطة في خدمة الشعب."

مسح الضابط على عرقة بمحرمٍ ورقيٍ وبقي يُمسد على رأسه التي يداهمها الصُداع والقيظ في الوقت ذاته، أسبل بعينيه لأسفل ليرمق ساعته التي تُشير عقاربها إلى الحادية عشر مساءً، أي أنه يجلس لساعتين متتاليتينٍ داخل مكتبه وأمام هذا المُتهم الذي سرد قصة حياته وتطرق إلى تفاصيل لا تعنيه.

-وبس كدة يا حضرة الظابط ... روحت لأبلة خديجة واعتذرتلها ... وقالتلي إنها سامحتني وهتديني درجات أعمال السنة .... أصلي بيني وبينك ... أنا مكنش قصدي احبسها في الحمام ... دي كانت لعبة سخيفة كدة عملتها عشان أثبتلهم إني اقدر اعمل أي حاجة...

أرخى فخر ظهره للوراء وهو لا يتوقف عن سرد حكايته واضعًا القدم فوق الأخرى ويرتشف من كوٌب الشاي الذي أخذه عنوة من أمام رأفت بيديه المُكبلتين، وضع كوٌب الشاي مُجددًا على الطاولة الصغيرة التي يجلس أمامها ليُعدل من وضع جلسته حتى يضحى موٌليًا وجهه للضابط قبل أن ينفجر مكانه.

-ومن ساعتها وأنا بحاول أرضي الأبلة خديجة .... يعني مرة روحت جبتلها ورد ... مرة روحت جبتلها شوكلاتة كورونا... مرة جبتلها برفان صيني ... ومرة_

-بـــــاس...

انفجر الضابط بوُجهه بتلك الكلمة الصاخبة التي انتفض جسد فخر إثرها وارتد بضعة أمتارٍ للوراء حتى يُراقب غضب رأفت الذي وثب عن المُقعد متقوٌهًا بشرارتٍ نارية:

-إيـــه ..... بقالك ساعتين بتتكلم ومطلعتش منك بحاجة مُفيدة .... شوية تقولي خالتي منار وبنتها سُمية ... والأبلة مرفت والأبلة خديجة ... وعم حسين .... والمسلسلات الهندي ... إيه يا أخي .... إنت مبتسكتش ؟

أفرغ رأفت ما بجعبته بتلك الكلمات التي آصابت فخر ببعض الحيرة مما جعله يحاول استرضاءه بقولٍ:

-آسف والله يا باشا ... أصل إنت بردو إللي قولتلي أحكي ... وأنا بقى مقولكش ... عندي قصص وحكايات ولا ألف وليلة وليلة ... دا أنا حتى مرة وأنا صغير_

-بـــاس .... إنت لسة هتحكي ... قوٌم اقف

قطعه رأفت بتلك الكلمات المرتفعة مما جعلت فخر يُنفذ تعليماته ويثب عن المقعد برضوخ أمام الضابط الذي كاد يفقد صوٌابه، لكنه مع ذلك أخذ نفسًا طويلًا ثم أطلقه على هيئة نيرانٍ متأججة أشعلت الأجواء خاصة مع نظراته، حاول التهدئة من روٌعه لبضع ثوٌانٍ قبل أن يستجمع قواه العقلية وهو يسأل للمرة التي لا يعلم عددها:

-هو سؤال ورد غطاه .... سرقتو التمثال من خليل أبو الدهب ليه ؟

رسم فخر بسمة مرحة على ثغره قبل أن يقول بتفهُم:

-أاه ... حضرتك قصدك على التمثال بتاع مردوخ إللي سرقناه من خليل ابو الدهب ؟

أومأ الضابط إيجابًا وداخله يحمد ربه أن ذاك الثِرثار فهِم مقصده، لكن يبدو أن اطمئنانه سيذهب أدراج الرياح عندما عاود فخر الجلوس على المقعد وهو يقول بوُدٍ كما لو كان الضابط صديقه الحميم مُنذ الصِغر:

-يا راجل ... متقول كدة من بدري...

أرخى ظهره للوراء ليبدأ سرد ما حدث وكأنه يحكي قصة للأطفال **:**

-الحكاية وما فيها ... إن أنا خير الله ما اجعله خير ... كُنت قاعد في آمان الله ... وفجأة، جاتلي فكرة جُهنمية عشان نسرق بيها التمثال، بس للأسف الفكرة دي كانت هتحتاج حد إعلامي أو على الأقل دارس إعلام .... فروحت للبت فرحة أختي وهي قالتلي أطلع معاها لايف عشان تساعدني... أصلها مجنونة سوشيال ميديا ... دا حتى وإحنا عيال صُغيرين، كانت دايمًا تعمل نفسها مُذيعة وتطلع تتكلم مع جمهور مش موجود أساسًا، وأنا طبعًا مكنتش بطيق حاجة اسمها سوشيال ميديا وكلام من ده ... أه أصل كلها حاجات ملهاش تلاتين لازمة ... بالك انت لو السوشيال ميديا اختفت من المجرة ... تخيَل بقى هيحصل إيه_

-كفايـــة .... أبوس إيديك كفاية ... يا أخي أنا نسيت كُنت بسألك عن إيه

انتفض فخر مُجددًا إثر الصُراخ النابع من رأفت، والذي تبعه بأوامر صارمة ألزمته بالوثوب عن المقعد والتحرك برضوخ مع المأمور حتى يوُضع بزنزانته ويرتاح رأفت من كتلة الصُداع المتحركة هذه.

ما إن ترك فخر المكتب حتى ارتمى رأفت على مقعده يشعر بأن صخرة كبيرة انزاحت عن صدره وسمحت له بالتقاط أنفاسه، لكنه تذكر أيضًا تلك القضية وتلك الأقوال التي يُريدها من المتهمين قبل إيداعهم بالسجن ومثولهم أمام المحكمة؛ أطلق زفرة حارقة قبل أن يُجري مكالمة هاتفية سريعة قال بها بصوُتٍ آمر:

-دخلّي المُتهم إللي بعده...

وضع سماعة الهاتف مكانها وأرخى ظهره للوراء آملًا أن يضحى المُتهم الآخر إنسانًا ناضجًا يُخبره بحقيقة ما حدث، وما علاقتهم بهذا التمثال دون المماطلة والثرثرة كالمتهم الآخر.

ما هي إلا لحظاتٍ قليلة حتى فُتح باب المكتب ودلفت ميادة برسغيها المُكبلين بالأغلال وعينيها التي أغلقتهما حتى تُردد داخل عقلها بصوُتٍ هامسٍ حاولت معه تحدِّي تلك اللعنة:

-أنا مش هعيَط ... مش.. هيعيط ... مش هعيَط تمام ... أنا مش هعيَط ... حتى لو سألني إيه .. مش هعيَط...

أخذت نفسًا عميقًا ثم أطلقته وهي لا تزال تُردد تلك الكلمات حتى أمرها رأفت بالاقتراب نحوه حتى يبدأ استجوابها؛ استجابت ميادة لأموامره وتحدُّت ارتجافة جسدها ورغبتها الجامحة بالبُكاء أثناء تحرُكها خطواتٌ قليلة أمكنتها من الوقوف مباشرة أمام رأفت لترفع رأسها أمامه بتحدٍ سافرٍ لتلك اللعنة:

-أنا مش هعيط .. مش هعيَط...

بقيت تُردد تلك الكلمات بصوُتٍ خافتٍ حتى سألها رأفت بحدة:

-اسمِك إيه ؟

وما هي إلا ثوانٍ قليلة حتى انفجرت مرة واحدة بالبكاء الذي أحنت معه رأسها لأسفل وتساقطت دموعها حتى باتت تخلق أنهارًا، فقد ضربت بقراراتها عِرض الحائط بعد أن انفجرت باكية بسبب هذا السؤال البسيط.

-والله يا باشا معملتش حاجة ... والله معملتش حاجة....

قالتها بين شهقاتها لتنفجر مُجددًا بالبكاء أمام رأفت الذي كاد يُصاب بالذُهان، حتى أنه وثب عن المِقعد وحاول الحديث معها برقة:

-اهدي يا أنسة اهدي ... أنا كُنت بسألك عن اسمك عشان نسجل المحضر

لم تكن كلماته سوى فتيلًا أدى إلى انفجار قُنبلتها وازدياد حدة دموعها وحديثها المُتقطع:

-أنا معملتش حاجة...

انهمرت الدموع من عينيها أكثر وبدأت تستنشق مخاطها لتُصيب رأفت بحالة من الارتباك والحيرة، فهو لا يعلم كيف لمُجرمة قامت بالسرقة أن تضحى هشة هكذا، انتظر بضع دقائق حتى تهدأ وتستطيع التحدُّث معه بطلاقة، لكن انتظاره لم يكن ذا فائدة لأن بكاءها يزداد ودموعها لا تجف أبدًا، فهذه ليست قنواتًا دمعية، هذه قناة السويس.

-خلاص بقى يا أنسة

خرجت تلك الكلمات من جوفه بصوُرة حادة بعد أن طفح كيله وبات صوُت بكاءها يُصيبه بالانزعاج، وما إن هتِف بوجهها حتى لعن ذاته أكثر عندما وجد نواحها وبكاءها يزدادان ويزيدان شعوره بالانزعاج، يقسم أنه إذا كان بالروضة لما استمع إلى كل هذا البُكاء.

-يووه ... يا عبد الرؤوف ... تعالى خُد المُتهمة دي على الحجز

رفع من صوُته حتى يستجيب المأمور لكلماته ويدلف الحُجرة عازمًا على انقاذ رأفت من كُتلة الانزعاج هذه، تخلُّص الآن من كتلة الصُداع ومن كُتلة الانزعاج، يتسآل كيف سيضحى المُتهم الآخر بتلك العصابة المُختلة عقليًا...

انطلقت نظرات لارا الثاقبة صوُب رأفت الذي كاد ينفجر إثر تلك الاستجوابات، أخبروه سابقًا أنه هو من سيضغط على المتهمين حتى يعترفوا وليس العكس، نعم، فهو على وشك الاعتراف بما لم يفعله تحت مفعول الجنون الذي على وشك الإصابة به.

تقدمت لارا نحوه بخيلاءٍ وجرأة لم تكن تعهدهما مُسبقًا، طالعته بنظراتٍ حادة تابعت معها رحيل ميادة بوجهها الأحمر وعينيها المُنتفختين مما أوهم لارا أن ذاك الضابط مارس عليها سُلطته وقام بتعذيبها نفسيًا أشد أنواع العذاب، لا تعرف أنها انفجرت بالبكاء فقط عندما طلب منها أن يحصل على اسمها.

تنهد رأفت تنهيدة عميقة حاول معها المحافظة على ما تبقى من قواه العقلية أثناء سؤاله الهاديء:

-هو سؤال واحد ومش عايز مماطلة .... كُنتو عايزين إيه من خليل أبو الدهب ... واشمعنا سرقتو التمثال ده بالذات ؟

رفعت حاجبيها بلامبالاة ربطت معها ذراعيها تحدُيًا لعِباراته المُهددة التي لا تعنيها، أو لم تعد تعنيها وهي تقول:

-وأنا إيه إللي يخليني أقولك ؟

زادت كلماتها من اشتعاله رغم محاولاته المريرة بالمحافظة على هدوءه أثناء معاودته الحديث بتهديد:

-جاوبي على سؤالي بدل ما ارميكي في التخشيبة

نمت بسمة ساخرة مُستهزئة على ثغرها تبعتها بالجلوس ببرودٍ تامٍ على المِقعد المؤُلي لمكتب رأفت حتى تثبت له أن كلماته المُهددة لا تعنيها البتة، حيث وضعت قدمًا على قدمٍ وهي تسترخي بظهرها للوراء كما لو كانت رئيسًا للجمهورية يتحدث بغرورٍ مع رعُيته:

-وإيه رأيك بقى إني مش هجاوب ... ومش خايفة من التخشيبة

هنا ولم يعد يتحمل رأفت ووجد ذاته ينفجر كيانبيعٍ ساخنة وجدت اللحظة للانفجار:

-قومي اقفي .... إنتِ ازاي تكلميني بالطريقة دي ؟ انتِ عارفة انا ممكن اعمل فيكي إيه ؟

لوُّت فمها بتهكمٍ ثم آجابته بتحدٍ:

-مش قايمة .... ووريني هتعمل إيه

سرق نفسًا عميقًا حارقًا تغلغل داخل صدره ثم أخرجه على هيئة أدخنة نارية كفيلة باشعال المكتب بأكمله، حاول للمرة المئة أن يجاريها في الحديث ويثبت لها أنه قادرٌ على مواجهة جرأتها غير المعهودة:

-ماشي .... خليكي قاعدة .... عشان لو وقفتي ورحمة أبوية ما هرحمك

أنهى حديثه بتهديدٍ صريح جعلها تُطالعه بنفس نظراته الثاقبة وهي تثب عن المقعد متفوٌهة:

-طب تصدق بقى ... والله العظيم لانا قايمة ... ووريني بقى عرض كتافك ... فاكرني يعني هخاف لاا... دا انا هبلغ عنكم الحكومة واوديكم في ستين داهية

رفعت سبابتها أمامه بتهديدٍ رغم نظراته البلهاء التي يُطالعها بهم لأنه لا يفهم تهديدها الأحمق، فكيف تُهدده بالسجن وهي مُتهمة ومُكبلة بالأغلال داخل مركز الشُرطة ؟ ومع ذلك وثب قبالتها تحدٌيًا لنظراتها المُحتدة وضاربًا لمُعتقداتها عِرض الحائط عندما هتِف بأمر:

-يا عبد الرؤوف ..... تعالى خُد المتهمة دي على الحجز ... ودخلّي آخر مُتهم

لم تتوٌقف لارا عن مجادلته وسبهم ومحاولة التملص من قبضتهم رغم تصريحاتها البلهاء بأنها ستسجنهم جميعًا، وكان رأفت يُتابع ما يحدث من بعيدٍ ويُملس على جبهته داعيًا ربه أن تنتهي تلك الليلة على خير، وأن يضحى آخر مُتهمٍ هو العقل المُدبر والأكثر نُضجًا وعقلانية من بينهم.

رسم باسم بسمة بلهاء على ثغره وهو يلوٌح للضابط رأفت باذبهلالٍ كما لو أنه يتقابل مع وزير التعليم العالي بعد أن حصل على جائزة أكثر الطُلاب ذكاءً.

تنهد رأفت بحرقة قبل أن يعتدل في جلسته ويتقدم بجذعه للأمام قليلًا هادرًا بهدوءٍ وصوٌتٍ مبحوحٍ مُتحشرجٍ إثر عراكه مع جميعهم.

-اتفضل يا بني ... ومن فضلك تجاوب من غير لت وعجن

اتسعت بسمة باسم البلهاء وهو يُجيب بإعجابٍ آصاب رأفت بالحيرة:

-دا إنت تؤمرني يا سيادة الرائد إنت ووكالة ناسا كُلها

قطُّب رأفت حاجبيه بحيرة إثر كلماته التي جعلته ينبس:

-ناسا !؟

أومأ باسم برأسه مؤكدًا ببلاهة قال معها:

-أيوة ناسا ... هو مش حضرتك رائد فضاء ؟

اسبل رأفت بعينيه حتى لا ينفجر مرة أخرى أو يُقدم على طلب استقالة من تلك المهنة، لكنه نحُّى تلك الفكرة جانبًا وهو يرسم نظراتٌ حادة على عينيه أثناء حديثه المُفسر:

-أنا رائد في الشُرطة .... وبحقق في جريمة السِرقة إللي إنت وزمايلك عملتوها

فغر فاهه وهو يُصدر خواء البقرة بعد أن فهِم مقصد الضابط أخيرًا، أو اعتقد أنه فهمه.

-أااه ... إنتو لحقتو تعرفو ؟....

رفع يديه المُكبلتين ليضرب كفيهما بحسرة غمغم معها:

-أكيد البت عفاف هي اللي فتنت علينا ... والله لاوريكي يا بت رُشدي

رفع من نبرة صوُته حتى ينصت الضابط لتوُسلاته:

-وحياة ربنا يا باشا الواد حوشكا هو السبب ... هو إللي ساعدنا في السبوبة دي ... أنا بريء يا باشا والله

لم يفهم رأفت أي من هذا الهراء مما دفعه للوِّي فمه بحيرة طالبٍ اقتحم قاعة خاطئة يتم شرح فيها كيفية صناعة طواحين الهواء، وهو لا يعرف طواحين الهواء من الأساس.

-حوشكا مين ؟.... الواد إللي معاك اسمه فخر ... والاتنين التانيين ستات

قطَّب باسم حاجبيه ببلاهة غمغم معها بدهشة وبلاهة:

-إيه ده ... هو فخر كمان سرق الفراخ من خالتي صباح !!... غريبة، يعرفها منين ده ؟

استمع رأفت إلى غمغمته التي كادت تُمزقه إربًا لكنه مع ذلك أردف بغُلظة:

-أنا بتكلم على سِرقة التمثال ... تمثال مردوخ

رفع باسم فكه لأعلى فاغرًا إياه وهو يُصدر خواء البقرة للمرة الثانية بعد أن فهِم أخيرًا ما يتلوه الضابط على مسامعه:

-إنت قصدك تمثال مردوخ !... يا راجل، ما تقول كدة من بدري

حمد رأفت ربه في سره ومنَّى نفسه بأنه أخيرًا سيحصل على اعترافٍ من تلك العصابة المُختلة عقليًا، عادت نبرته الهادئة مُجددًا وهو يقول بنفاد صبرٍ لكنه حمد معه ربه:

-كويس أوي ... قولِّي بقى إنتو ليه سرقتو التمثال ده عشان نقِّفل المحضر .... ولو عايز محامي، أنا ممكن اوفرهولك

اتسعت بسمة باسم حتى شقَّت وجهه وهو يقول ببساطة:

-لا يا باشا مش محتاجة محاميين ... الحكاية وما فيها، إننا سرقنا التمثال ده ... عشان خاطر اللعنة

زاد الوجوم على وجه رأفت وهو ينبس بحيرة:

-لعنة!!

أومأ باسم ببلاهة أكد معها حديثه وهو يقترب من رأفت حتى جلس على المقعد المقابل له استعدادًا لسرد الحقيقة:

-أيوة لعنة ... أصلي بيني وبينك ... إحنا روحنا المقبرة لقينا فيها تمثال أثري كنا عايزين نبيعه ونكسب من وراه .... بس التمثال طلع ملعون زي لعنة الفراعنة وكدة

هنا ولم يعد يتحمل رأفت أكثر من هذا، يشعر أنه يعمل داخل مشفى للمجاذيب وليس مركزًا للشُرطة، لهذا السبب قرر إنهاء الاستجواب قبل أن يقص باسم حكاية علي بابا والأربعون لصًا ويقنعه بواقعيتها.

-قولتلي بقى لعنة ... أااه

أومأ برأسه مُستهزئًا ثم رفع سماعة الهاتف حتى يقول بأمر:

-تعالى يا عبد الرؤوف خُد المُتهم ده على الحجز

تنهد تنهيدة حارقة وهو يتابع ولوج عبد الرؤوف وأخذه لباسم رغم نظراته البلهاء، فما إن رحل باسم عن المكتب حتى سأل رأفت عبد الرؤوف الذي عاد مجددًا ليتلقى المزيد من الأوامر:

-بقولك إيه ... إنت متأكد إن دول سرقو خليل أبو الدهب ... دا بالعقلية دي ميعرفوش يسرقو حضانة...

———————————————

الظلام لا ينبت بداخلنا، بل نحن السبب في خلق الظلام، ونحن السبب في انتهاءه...

لم تتوُّقف عن البكاء والولولة لساعاتٍ طويلة وهي داخل الزنزانة وحولها السيدات من مُختلف الأجناس والهيئات، فمنهن من ترتدي ثيابًا خليعة تكشف أكثر مما تستر، ومنهن من ترتدي جلابيبًا سوداء تجعلك تعتقد أنها أتت لسلب روُحك خاصة بملامحها المُتجمهرة ونظراتها الإجرامية، وهناك أيضًا من حافظت على هدوئها وسكونها وانزوُت في بُقعة نائية تُرتل بعض الكلمات الغريبة وتتجاهل نظراتهن التي تتفحص ثيابها الأشبه بثياب الهنود الحُمر.

لم تتوُّقف لارا عن التربيت على ظهر ميادة لعلها تهدأ، لكن الحقيقة أن بكاءها ونحيبها يزدادان كلما زادت لارا من تربيتاتها.

-خلاص بقى يا ميادة إنتِ بتجيبي الدموع دي كلها منين

حاولت كفكفة دموعها بأكمامها وهي تُجيب بين شهقاتها:

-مش عارفة

قالتها وانفجرت بعدها بالبُكاء بصوُتٍ مُرتفع وصل طنينه إلى بقية المسجونات حتى اغتابت واحدة منهن وآرادت إيقاف وصلة النواح هذه بأي شكلٍ كان.

-ما خلاص بقى يا ست إنتِ ... مش عارفين ننام

زادت ميادة من وصلة بكاءها وهي تشتكي بأن تلك السيدة تصيح بوجهها، وما كان من لارا سوى الغضب والوجوم اللذان جعلاها تترك ميادة وتبسط صدرها أمام تلك السيدة الأربعينية ذات الجلباب الأسود المُهتريء.

-جرا إيه يا ست إنتِ ... هي بتعيط على هدومِك ؟... وبعدين إنتِ إزاي تكلميها بالأسلوب ده ؟

رفعت السيدة حاجبيها باستهزاءٍ بادلت معه نظراتها مع زميلاتها وكأنها تقول لهم ضمنيًا " كيف تجروء هذه على الحديث معي بتلك الطريقة ؟ "، وهذا ما جعلها تثب عن الأرض لتواجه لارا بنظراتها الحادة المُستهزئة ولوُية فمها التهكمية أثناء قولها:

-وتطلعي مين إن شاء الله عشان اعملِك حساب ... تكونيش بنت الوزير وأنا معرفش

ربطت لارا ذراعيها باستخفافٍ حافظت معه على استعلائها أثناء قولها:

-أه بنت الوزير ... وإياكي تهوِّبي ناحيتنا تاني لاحسن اوريكي إللي عُمرِك ما شوفتيه

أنهت حديثها بتهديدٍ واضح زاد من سُخرية السيدة والتفافها نحو زميلاتها حتى يُلقنن تلك المُتمردة درسًا لن تنساه بحياتها، فما هي إلا ثوانٍ قليلة حتى وثبن السيدات ووقفن وراءها تزامنًا مع وثوب ميادة هي الأخرى لعلها ستُنقذ ابنة خالتها مع العِلم أنها تعرف جيدًا ما الذي ستفعله ... البُكاء.

-طب أنا بقى هقرِّب ناحيتها وهجيبِك إنتِ وهي من شعركم كمان إن معتذرتيش وقولتي حقي برقابتي

لم تؤثر أي من هذه الكلمات على لارا التي طالعتها باستهزاءٍ قررت معه انهاء الموقف بُرمته بتحدِّيها السافر:

-يبقى اتشاهدي على روحِك...

ما هي إلا ثانية واحدة فقط حتى انقضت لارا على تلك السيدة بضربة قوية نطحت بها رأسها وتعاركت بعدها مع بقية السيدات إلى أن انقلبت الزنزانة إلى حلبة مصارعة....

———————————————

على الصعيد الآخر، وفي الزنزانة الخاصة بالرجال، كان يتمدد باسم على الأرض الصلبة مُستندًا برأسه على فخذ فخر الجالس على الأرض يسترخي بظهره للوراء ويضع يديه وراء رأسه.

انصبَّت عيني باسم إلى سقف الحُجرة المُعتمة نسبيًا وهو يقول بطريقة قائد الجيش وهو يُملي على فريقه خطة للهروب من كهف البِغال:

-إحنا ممكن نجيب معلقة .... ونفضل نحفُر في الحيطة لغاية ما نعمل فتحة ونهرب منها

همهم فخر بتفهمٍ رغم حماقة الخُطة والتي لم تُحرِّك به أي من ردود الفعل، بل وجعلته ينبس بوُد:

-فكرة بردو .... بس ده هياخد مننا وقت كتير، واحنا مقُدمناش غير بُكرة بس

أسبل باسم بعينيه لأسفل وهو يُوافقه الرأي بيأسٍ بالغ تذكر معه الساعات المعدودة التي سيقضيها هنا وربما ستنتهي حياته وقتها، لكن تلك اللعنة تُحدث تدهوُرًا في مناطقه الاستشعارية وتجعله يُظهر عواطف لا يجب أن يُظهرها في وقتٍ كهذا.

-بس تصدق يلا ... فكرتني بالذي مضى ... أصل وأنا عندي تسع سنين، كُنت بجيب المعلقة وأفضل أرسم بيها على الحيطة، أه والله... كُنت فاكر نفسي فنان.... وبعد كدة بقى_

كاد بواصل حكايته بشغفٍ قطعه رجلٌ بدينٌ ضخم البنية يرتدي ملابس داخلية بيضاء ممزقة تحتوي على العديد من البُقع الصفراء وأسفلها بنطالٌ زيتي فضفاض مليءٌ بالأتربة، وذقنه ممتدة لأمتارٍ إلى أسفل تجعلك تعتقد أنه " إبليس " في فول الصين العظيم.

تفوح منه رائحة مُقززة تسببت باختناق الحشرات وموُتها، ويتقدم نحوهما بنظراتٍ مقيتة مُشمئزة تفحصتهما من أعلى رأسهما لأخمص قدميهما، انتهت تلك النظرات بركلة بسيطة على قدم فخر جعلته يتأوه لبُرهة من الوقت قبل أن ينتبه لصاحب تلك الركلة ويعتدل في جلسته متفوهًا:

-نعم ... مين حضرتك ؟....

قالها ببعض الارتباك الذي جعل باسم يعتدل هو الآخر في جلسته وينتبه إلى ذاك الجسد الضخم الذي كان يقول بصوُتٍ جهوري:

-إنت مين ياض إنت وهو ؟...

رغم أن كلماته كفيلة ببعث الرهبة في النفوس، إلى أن فخر رماه بابتسامة واسعة أردف معها وهو يثب عن الأرض عازمًا على تبادل الصداقة معه بأية طريقة:

-أنا فخر .... فخر العرب همام .... صحابي في المدرسة كانو بيفتكرو محمد صلاح لما الميس تنده اسمي .... وبابا بقى، الحَج همام .. قالي إنه_

كاد يواصل حديثه لولا تلك القبضة التي تشبثت بياقة ثيابه ودفعته نحو ذاك الجسد الضخم الذي أخبرهما:

-مش عايز كلام كتير .... واتفضل إنت وهو هاتو كل إللي معاكم ... القعدة هنا مش ببلاش

رفع باسم حاجبيه ببلاهة وهو يُعلق:

-إيه ده بجد !!... طب مقالوش ليه قبل ما ندخل ؟... دا أنا مجبتش معايا حاجة

لوّى الرجل فمه بتهكمٍ أعقبه بضربة بسيطة على وجنة باسم بدت مُطمئنة رغم التهديد الذي تُخفيه داخلها:

-ولا يهِمك .... بس البنطلون والحذمة دول يلزموني

طالعه باسم ببلاهة لم يفهم معها حديثه والتفاتته نحو فخر حتى يُخبره بنفس تلك النبرة:

-وإنت كمان

اتسعت بسمة فخر ما إن استقبل أوامره وكأنه استقبل خبر حصوله على المنحة ويجب عليه تنفيذ الإجراءات، فكان يؤكد حديث الرجل بكلماته الودودة:

-يعني إنت عايز الجذمة والبنطلون

-وكل حاجة

هكذا قال الرجل بغُلظة لم تُغير من ابتسامة فخر الذي أحنى ظهره لينتزع حذاءه عازمًا على إهداءه لهذا الرجل بطيب خاطرٍ وكأنه يُقبل على عملٍ خيري:

-بس كدة ... أدي يا سيدي الجذمة أهي ... والبنطلون كمان أهو

قالها وهو يخلع سرواله ويُعطيه للرجل الذي لم يتوقف عن متابعته بحيرة، فهذا أول مسجونٍ يُنفذ تعليماته بلا إجبار.

سلّم فخر سرواله وجميع ملابسه للرجل حتى بات واثبًا بثيابه الداخلية، وكان الدوٌر على باسم حتى يفعل ما فعله فخر وإلا نال عقابًا مريرًا، كانت نظرات باسم مُتشككة وهو يلتفت صوٌب فخر حتى يهمس بأذنه لعله يستمد منه بعض الآمان.

-أديله البنطلون ؟

ربت فخر على ظهره باطمئنانٍ قال معه:

-اديله اديله .... ده شكله طيِب وغلبان

قطٌب باسم حاجبيه وهو يُشير على الرجل غليظ الملامح ويسأل بعدم تصديق:

-ده طيِب وغلبان ؟

أومأ فخر رأسه بابتسامة عريضة تُزين ثغره وكأنه يعرف هذا الرجل مُنذ قديم الأذل، هذا ما جعل باسم يرفع كتفيه بموافقة تبعها بخلعه للسروال الخاص به واهداءه للرجل مُنفذًا لتعليماته واطمئنانًا بكلمات فخر التي ستلقي بهما نحو الهاوية....

اليوم السابع....

دقت عقارب الساعة الثامنة مساءً، وأسدلت السماء ستارها في ذاك اليوم الحاسم، اليوم الذي سيتحدد فيه مصيرهم، وستنتهي فيه لعنتهم، بل وربما تنتهي معها حياتهم أيضًا، فما باليد حيلة، بعد أن اضطروا لتسليم التمثال وإمضاء على تعهدٍ بعدم التعرُّض لخليل مرة أخرى وإلا سيتم سجنهم وتحوُّيلهم للنيابة، وربما يتدمر مُستقبلهم أيضًا، وما الفائدة من تدمير مُستقبلهم وحياتهم على المحك هكذا ؟

ترنحُّت أجسادهم وهم يبتعدون عن مركز الشُرطة بعد أن تم الإفراج عنهم واستعادوا أموالهم، ملأت الكدمات وجه لارا بشعرها المُشعث وثيابها الممزقة من الأكتاف، وكان كلًا من باسم وفخر، يرتديان ثيابًا مُهترئة لا تستطيع تفريقها عن ملابس الفُقراء والمساكين، أما ميادة، فكانت الأقل تضررًا فيهم، فلم يطُلها أي من الكدمات أو الملابس المُهترئة، فقط شعرها المُشعث وبعض الأتربة على ثيابها، ناهيك عن نواحها وبكاءها اللذان لم ينقطعا مُنذ تركت أقدامهم مركز الشُرطة، فقد كانت تُذكرهم أنهم اليوم سيضطرون على الوداع، ولن يروا وجه هذه الحياة مُجددًا.

قطع وصلة بكاءها صوُّت باسم الذي يمسك ببطاقات الهوية الخاصة بهم عازمًا على تفريقها بينهم بعد أن استلمها من المركز، لكنه توُّقف عِند الاسم الخاص بميادة ليقرأه بأعينٍ مُقطبة مليئة بالحيرة:

-إيه ده ؟... ميادة البلطجي !؟

توُّقفت ميادة عن البُكاء لبُرهة قصيرة قالت معها بحدة وهي تنتشل بطاقة هوُّيتها:

-ميادة البُلتاجي يا جاهل ... وبعدين إنت بتتريق على اسمي وانت ابن دانيال الكحان

رفع حاجبيه بتهكمٍ قال معه بفخرٍ من نفسه وعائلته:

-ماله يعني ابن دانيال الكحان ... إنت عارفة إنتِ العيلة دي مشهورة قد إيه ؟

كاد يواصل جداله معها متناسيان تلك الغُمة، حتى قطعهما فخر بكلماته الجادة:

-كلمت صاحبك أمجد ؟

لم يفهم باسم حديثه مما جعله يهتف ببلاهة:

-هكلمه إزاي وهو مش موجود ؟

كان يعرف فخر تأثير تلك اللعنة مما جعله يُعيد السؤال بتفسير:

-قصدي كلمته على التليفون ؟

ولثاني مرة يُجيبه باسم بحماقته التي باتوا يعتادونها:

-إيه ده هو أمجد بقى تليفون !؟

سرق فخر نفسًا عميقًا ثم أخرجه عازمًا على إنهاء تلك الحماقة بمُده ليده متفوهًا **:**

-هات الموبايل أنا هكلمه..

لم يكد يُعطيه باسم الهاتف الخاص به_ أو يُغرقه بوُصلة غباءه_ حتى وجدا أمجد يتقدم نحوهم وعلى وجهه ابتسامة ودودة انقض معها على باسم ليأخذه في عِناقٍ أخويٍ قال معه:

-كفارة يا فنان...

أنهى العِناق بربتة ودودة على كتفه استقبل معها ترحيبات باسم لينتقل بعدها صوٌب فخر ويُصافحه بوٌدٍ أخرج بعده مِفتاح السيارة ليُعطيها إلى فخر متفوٌهًا:

-أهي العربية ... روحت العنوان إللي قولتولي عليه وأخدت العربية وبنزنتها وجيت بيها ... أي خِدمة تانية ؟

كان يريد فخر استعادة سيارته قبل أن تتعرض للسرقة وهي في تلك البُقعة النائية، ولأن فخر لا يملك أية أصدقاء، أوكل تلك المهمة إلى باسم وطلب منه أن يتصل بأحد أصدقاءه ويطلب منه استعادة سيارته والمجيء بها إلى هنا، ولأن أمجد، هو أقرب صديقٍ بالنسبة لباسم، فكانت من نصيبه تلك المُهمة.

انتشل فخر مُفتاح سيارته العزيزة من بين يدي أمجد ثم تشكره بحرارة وعرٌض عليه أن يقله إلى وجهته المُرادة لكن أمجد لم يوافق وقرر أن يستقل سيارة الأجرة ويعود بها من حيث أتى.

ما إن رحل أمجد، حتى واصلوا سيرهم صوٌب السيارة على أمل العودة إلى منازلهم وطمئنة عائلاتهم وربما الجلوس معهم قليلًا في تلك الساعات المُتبقية.

توقف الجميع قبالة السيارة مباشرة لتتنهد لارا تنهيدة حارقة حمٌلت كمًٌا كبيرًا من ضيقها وإحساسها بالضياع أثناء قولها:

-كدة مفيش أمل .... خلاص فاضل كام ساعة وكلنا هنوٌدع

أحنت رأسها بضيقٍ مع آخر كلماتها مما جعل ميادة تنفجر بالبُكاء وهذه المرة، كان الجميع يتمنى أن يبكي مثلها.

-أنا متشكرة أوي على وجودكم معايا ... الوقت إللي قضيته معاكم كان من أحسن الأوقات في حياتي

لاح الندم على وجه باسم وهو يُضيف على حديثها باعتذار:

-أنا آسف ... أنا إللي لطتكم " أوقعتكم " في الحوار ده من الأول

استنشقت ميادة بعضًا من شهقاتها وهي تُكذب حديثه:

-إنت ملكش ذنب .... إحنا مشينا وراك بمزاجنا

تقاطرت دموعها مُجددًا وما هي إلا بُرهة وجيزة حتى عاودت البكاء وكادت لارا تحاول تهدئتها وهي تكبح جماح دموعها قدر الإمكان، وفخر يقف بين هذا كله يُطالعهم بنظراتٍ خالية من الملامح بعد أن ترك سيارته التي لم يتوٌقف عن العبث بها.

-إيه يا جدعان مالكم قلبتو الحوار دراما كدة ليه ؟

سألهم ببساطة جعلت لارا تُجيبه بحِدة حملت تحطُمها:

-عايزنا نعمل إيه يعني ؟... إحنا هنموت كمان كام ساعة ... ومقدرناش نجيب التمثال

اقترب فخر من حقيبة السيارة وقام بفتحها أمام نظراتهم الحائرة والتي ازدادت حيرة وهو ينتشل حقيبة سوداء ويفتح سحابها متفوٌهًا:

-ومين قال إن التمثال مش معانا ؟.... التمثال أهو....

الفصل الثامن (النهاية)

لا تخدعك الأساطير وتجعلك تستكين إلى حقيقة النهايات السعيدة المُطلقة، فالسعادة ليست مُطلقة، والنهاية ليست حتمية، فربما نهاية حكايتِك هي بداية حكاية جديدة، وفصل جديد...

كانت نظراتهم المذهولة تُحاكي نظرات المرء حينما يرى واحدة من المُعجزات، فمن أين أتى فخر بالتمثال ؟ وهل هو التمثال بالفعل أم أنه نُسخة مطابقة للأصل ؟ فقد رأوه وهو يُسلم التمثال خاضعًا إلى عناصر الشُرطة حتى يتم الإفراج عنهم، فكيف عاد التمثال مُجددًا إلى حقيبة السيارة ؟ أهذا سحرٌ أم حيلة ؟

قطع فخر وصلة شرودهم وأسئلتهم التي لا تحمل إجابة واضحة، لكنه أوضحها لهم عندما عاد بذكرياته إلى بضع ساعاتٍ للوراء مكنته من تذكر ما حدث....

قبل تنفيذ الخِطة ببضعة أيام، كان قد أقام العديد من العلاقات مع عددٍ من الشخصيات، أهمهم، النحات وصانع التماثيل " أيهم صديق"

كان يعرف أن الخطة ربما تتعركل ويتم كشفهم في أية لحظة، لهذا السبب آراد أن يُحيِك خطة أخرى بديلة سيتم اللجوء إليها ما إن تفشل تلك الخطة، وبالفعل صدُق حدسه وفشلت الخطة ليضطر آبيًا أن يُسلم التمثال ويرضى بالأغلال.

وعندما أتت اللحظة لتسليمه، أمسك بالحقيبة السوداء الأخرى، التي وَضع فيها النُسخة المزيفة من التمثال الذي صنعه أيهم ببراعته المعهودة، ولهذا السبب أصر على وضع التمثال داخل حقيبة السيارة حتى يستطيع تنفيذ هذه الخُطة البديلة، ويحصلون على التمثال.

-واو ... طب إنت مقولتش ليه إن فيه خطة بديلة ؟

قالتها لارا ببعض الحِدة لأن فخر لا يُشاركهم خطته وأفكاره كفريقٌ واحد، لكن نظراتها الحادة خفتت وتم استبدالها بالحرج عندما هدر فخر بتذكيرٍ حمل تهكمه:

-عشان تبوّظوها زي الخطة إللي قبلها ؟

أسبلت بعينيها بحرج تذكرت معه إفشاءها لسرهم بثقة عالمٍ يتحدث عن اكتشافاته العلمية، لا تدري حتى سبب هذه النشوة التي اعتلتها وهي تعترف أمام الشُرطة وتُرحب بتقييدِهم لرسغيها ودفعها نحو العربة، فبدون تلك اللعنة لكانت الآن في المشفى تتلقى العِلاج إثر الصدمة.

قطعت ميادة شرودها وهي تُهرول نحو السيارة بأقدامٍ مُرتعدة بعد أن ذكّرتها نفسها أن الساعة تكاد تشارف على الثامنة مساءً، أي أمامهم ما لا يتعدّى الأربع ساعاتٍ في تلك الحياة الخاوية.

استقلت السيارة بالمقاعد الخلفية وآشارت لهم بيديها رغم ثيابها الرثة ورائحتها الكريهة التي تُرغمها على الاستحمام لإزاحة
أثر هذه الرائحة، لكن واقعها سيجبرها على التأقلم مع تلك الرائحة حتى تنتهي من هذا الأمر، ففي النهاية، الحياة مع رائحة كريهة أفضل مئة مرة من عدم وجود حياةٍ من الأساس.

فتح فخر باب السيارة ليجلس على مِقعد القيادة ويبدأ بتدوٌير المُحرك استعدادًا للانطلاق في رِحلة جديدة مجهولة المعالم....

———————————————

هنا كانت بداية كل شيء، وهنا ستضحى النهاية....

صحراء جرداءٌ تبعث الرهبة في النفوس، حفيفٌ الرمال يتضارب مع هدير قلوبهم ليخلق سيمفونية تشرأِب لها الأنفاس وتتصدع بسببها تيارات الصمود.

ازدادت عُتمة الليل مع اقتراب عقارب الساعة من الحادية عشر والنُصف، فالطريق أنقص من الوقت المُتبقي ساعتين كاملتين، وسيرهم بأقدامهم بحثًا عن المقبرة أنقص منهم ساعة أخرى ولازالت السماء مُعتمة ولا يوجد أثرٌ لأي عوالم تدل على وجود مِقبرة فرعونية.

غارت قدماهم داخل الكُثبان الرملية لتمنعهم من استكمال الطريق، لكنهم ورغم برودة الطقس وسوٌاد المِنطقة وتقرحات أقدامهم بسبب السير الطويل، واصلوا الطريق على أمل الخلاص، الخلاص من تلك اللعنة والنجاة بحياتهم.

تضع ميادة أناملها على خُصلاتها الذهبية حتى تمنعهم من التطاير بفِعل الرياح وإعاقة رؤيتها، فيكفي الظلام الدامس من حولها، كادت مقلتاها تتركان محجريهما بعد أن تشرٌبت من اللون الأحمر ما يكفي ليجعلها أقرب لثمرة البندورة، ناهيك عن الخطوط الحمراء التي تشعٌان من مقلتيها وكأنها على وشك أن تتمزق مثلما تمزٌق فؤادها.

حاول باسم استدراجها للحديث لعله يسبر أغوارها ويُخفف من وهن مشاعرها الجياشة، فكان يُمازحها أولًا بكلماته عندما وجد دمعة تتمرد على صاحبتها وتبدأ بالاستحواذ على وجنتها الملساء:

-إنتِ هتعيَطي تاني ؟... علي النعمة الدموع اللي نزلتيها دي لو اتجمعت ممكن تحل أزمة الجفاف في أثيوبيا

قهقهت على دعابته قهقة خافتة فاترة أعقبتها بزحزحة دمعتها الشاردة ومعاودة النظر بعبوسٍ زيٌنه فيضٌ من مشاعر الذنب والندم على ما مضى، فكأنها في يوم الحِساب وهي تقول:

-أنا مش بعيَط عشان إللي احنا فيه .... أنا بس...

صمتت بُرهة عن الحديث لتستجمع كلماتها وتحاول قدر الإمكان أن تصمد أمام تلك المواجهة، فما أصعب من مواجهة النفس بأخطاءها.

-افتكرت لما لارا قالت إن شخصيِتي كانت قوية ... ودي مش الحقيقة

طالعته بنظراتٍ نادمة وهي تواصل بنفس تلك النبرة الخافتة وكأنها مُجرمٍ قرر الاعتراف بجريمته النادم عليها:

-أنا مش قوية ... ولا عُمري كنت كدة...

أخذت نفسًا عميقًا ثم أخرجته وهي تواصل:

-أنا معنديش إخوات ... وماما وبابا جابوني بعد فترة طويلة .... عشان كدة بيعاملوني أحسن معاملة ... عُمرهم ما قالولي لأ، أو حتى إللي بعمله غلط .... طول الوقت إنتِ أحسن واحدة ومفيش حد أجمل منِك لغاية ما صدقتهم ..... صدقت إني أحسن واحدة، وإن عادي إني أجرح حد بكلامي، ما هو محدش هيقولي حاجة

لم تستطع المقاومة أكثر ووجدت دموعها تنهمر تلقائيًا مع كل كلمة تقولها، فكل كلمة هي بمثابة سكينٌ ينحر عُنقها ويجعل دماءها تنسل بجوارها كشلالاتٍ وهمية شديدة الانحدار، حاولت كفكفة دموعها للمرة التي لا تعلم عددها وهي تواصل الحديث بندم:

-أنا أذيت ناس كتير .... عشان كدة اللعنة دي خلتني كدة .... عشان احس بوِّجعهم

لاحت بينهما بُرهة من الصمت كان باسم فيها غارقًا في اعترافها والذي أدرك لوهلة أن له علاقة بحياته هو الآخر، فلا أفضل من هذا الوقت للاعتراف، فبعد أقل من نِصف ساعة، ربما لن يجدوا ما يكفي للاعتراف بذنوبهم ومحاولة تصليحها.

-أنا كمان آذيت ناس كتير .... وكنت بستخدم ذكائي عشان أخدع الستات ... وأغشش زمايلي ... قال يعني هيبقى ليا عندهم مصلحة واستزرق من وراهم .... ومن بعد اللعنة دي بقيت حاسس إني عاجز ... حاسس إني مكنش ينفع اعمل كدة من الأول

اسبلت بعينيها لأسفل وهي تُفكر قليلًا في حديثه حتى أردفت باستنتاج:

-تفتكر اللعنة دي بتعلِّمنا ؟

لم ينبس ببنت شفة وكانت نظراته توحي بالجهل والتيه، فتيهه في الصحراء الجرداء لم يسبق تيهه الداخلي منذ وقع بين يديهم هذا التمثال، فهل بالفعل كانت لعنته لعنة ؟ أم أنها درسًا قاسيًا عليهم أن يتعلِّموا منه جيدًا ؟

على بُعد أمتارٍ قليلة منهم، كانت تتحرك لارا بشرودٍ تحاول التدثر داخل كنزتها القُطنية حتى لا تتجمد بسبب تلك البرودة وتحتمي بذاك التمثال الذي تحمله، تجاهد كي تتحرك على تلك الرمال الكثيفة بجسدها الهزيل الذي على وشك التحوُّل إلى كُتلة صفراء بسبب ما تكالبه من إرهاقٍ وإجهاد.

قطع فخر صمتها بسؤاله الفضوُلي رغبة بسبر أغوار الملل وانتهاز آخر لحظاته بتلك اللعنة التي تجعله يألف الجميع، لكن هذه المرة، آراد فقط أن يتعرَّف على ما تكنيه بداخلها لسببٍ لا يعلمه حتى الآن.

-إلا صحيح يعني ... هو إنتِ ليه كُنتِ بتخافي من كل حاجة ؟ .... أصل ميادة قالت إنِك كُنتِ بتخافي تروحي الجامعة

كان سؤاله هادئًا مرحًا لعله يستدرجها للحديث بنيةٍ صافية، لكنها اكتفت بالإيماء برأسها تأكيدًا على حديثه قبل أن تفصح عن حقيقة الأمر بعد بُرهة من الصمت:

-عشان أختي

بصقت تلك الكلمة بعينين تزيغين بعيدًا حتى لا يرى دموعها المتلألئة، فكانت كلماتها أشبه ببيت شعرٍ يتعطش للتكملة، وهذا ما دفعه للسؤال بفضول يزداد أكثر:

-أختِك !!... إنتِ عندِك أخت ؟

أومأت إيجابًا بدموعٍ مكبوتة قالت معها:

-أيوة ... أكبر مني بسنتين ... بس...ماتت

أنهت حديثها بنبرة خافتة وكأنها لا تُريد تذكُر ما حدث مُنذ عامين، لا تريد تذكر تلك الحادثة وهذا اليوم الذي اختفى فيه بريق حياتها.

-كانت أكتر من أختي ... كانت أمي وصاحبتي وكل حاجة بالنسبة ليا ... كل حاجة كنا بنعملها مع بعض، هدومي كانت هدومها وهدومها كانت هدومي وعُمرنا ما

اتخانقنا إلا ورجعنا اتصالحنا بعدها بأقل من ساعة زمن .... كانت أطيب واحدة اعرفها، وكانت بتحب الحياة ... بس شكل الحياة مش بتحبها

كان بداية حديثها كُتلة مُفعمة بالاشتياق والحيوية، لكنه انقلب مرة واحدة إلى صوٌتٍ مُتحشرج يشعر بالُخذلان من تلك الحياة، وكان فخر بين هذا كله، يطالعها بإبهامٍ ونظراتٍ تحمل العديد من الأسئلة، والتي آجابتها هي بعد أن سجنت براثن ضيقها في سجنٍ مُشدد الحِراسة حتى تسطيع اكمال القصة:

-في يوم رجعت من الجامعة .... لقيت البيت مقلوب، الإسعاف موجودة، وماما عمالة بتصوٌت، والجيران موٌجودين في كل حتة ... وقتها حسيت إن قلبي هيقف وإني مش قادرة اتحرك واشوف إيه اللي حصل ... افتكرت إن بابا حصلٌه حاجة ... ولما لقيته قُدامي اطمنت وقولت أكيد في حد من الجيران حصلٌه حاجة ... بس .. بس مكُنتش اتوٌقع إنها أختي

انهمرت الدموع من عينيها رغم صمودها الطويل، لكن إعادة تلك الذِكرى داخل رأسها وإعادة تلك الأحداث أمام عينيها، يجعلها تبكي رثاء شقيقتها كأن يوم وفاتها كان البارحة.

أزاحت دموعها بفؤادٍ صامدٍ وعزيمة متأججة دفعتها لمواصلة الحديث بتقٌطع:

-قالولي إنها كانت بتستحمى ... واتخنقت من بُخار الماية وماتت

رسمت بسمة مُنكسرة تحمل الكثير من المعاني وهي تواصل:

-من ساعتها وانا بستحمٌى بماية ساقعة ...وخايفة من كل حاجة، أصل طالما حاجة بسيطة كدة ماتت بسببها أختي ... يبقى الموت موجود في كل حتة

حفرت كلماتها بئرًا غائرًا داخل عقله، تذكر ارتجافها القديم وتوٌترها الدائم، تذكٌر خوفها من أقل الأشياء حتى ولو كانت ذُبابة، ورغم أنه لم يُظهر اهتمامه بتفاصيلها، إلى أنها كانت شغله الشاغل منذ رآها لأول مرة، وزاد فضوله اتجاهها بعد معرفته عن ذاك السر الذي افصحت عنه، وعن شقيقتها التي سُلبت حياتها ببساطة كما لو أن

سلب الحياة سهلًا، وهو بالفعل سهلٌ ويفاجئنا دائمًا، لكن الخوف من الموت يجعلنا نموت يوميًا مئة مرة.

آراد أن يُخبرها أن تتحلّى بالإيمان ولن يُرهبها الموت، لكنه يجد لسانه ينعقد مكانه خشية من الانجراف إلى أحاديث لا فائدة منها ولا وقت لها الآن، ربما سيُخبرها بتلك الأمور حالما تنتهي تلك اللعنة، هذا إن انتهت من الأساس.

بعد فترة وجيزة من الصمت، كانت قد هدأت قليلًا من نيران شجنها ولهيب اشتياقها، كفكفت دمعاتها القليلة الشاردة حتى ترميه بنظرة عابرة آرادت معها تجاذب أطراف الحديث كآخر مرة قبل مواجهتهم للمجهول.

-وإنت بقى ؟... ليه مكنتش بتطيق حد ؟

كان يعلم أن ذاك السؤال سيتبادر إلى ذهنها خاصة في جلسة الاعترافات هذه، لهذا السبب أعد العُدة جيدًا واستعد لذاك السؤال رغم صعوبة إجابته.

تنهيدة عميقة كانت الفاصل ما بين صمته الطويل ورغبته المريرة في الاعتراف، فإن لم يفضي ما بجعبته فربما لن يجد الفُرصة لفعل ذلك فيما بعد.

-عارفة لما تكوني حاسة بالوحدة .... رغم إن حواليكي ناس كتير ؟

بدأ الحديث بسؤاله الافتتاحي الذي يحمل عُمقًا جعلها تتطلع إليه بابهامٍ طفيف، ورغم أنها لا تفهم حديثه أو لا تعتقد أنها أحسّت به من قبل، إلى أنها أومأت برأسها إيجابًا حتى يواصل الحديث ولا يحتاج لتفسير كلماته المُبهمة.

-أنا بقى كُنت حاسس بكدة .... حاسس إن محدش بيفهمني...

صمت بُرهة عن الحديث ليواصل بعدها باستذكار:

-أنا كان عندي صُحاب وأنا في الابتدائية ... بس لما طلعت الاعدادية ونقلت المدرسة كلهم نسيوني ... ومحدش فيهم فكّر يتصل بيا حتى .... وفي الاعدادية كان

عندي صحاب ... بس بردو عملو زي اللي قبلهم .... وفضلت بعدها كل ما اتعرف على حد الاقيه يختفي فجأة .... لغاية ما عرفت حاجة مُهمة

سرق نفسًا آخرًا ثم أخرجه ليواصل بنبرة مُنكسرة:

-عرفت إن محدش فيهم كان حقيقي .... قعدتهم ووعودهم وكلامهم معايا كُله مكنش حقيقي .... وأنا حتى عُمري ما حسيت إني مرتاح وسطهم .... تفكيرهم مُختلف عني، تصرفاتهم مُختلفة .... كلهم ماشيين ورا ترندات ملهاش لازمة ... إللي يعملِك شعره قصة غريبة وإللي يصاحب مليون بنت عشان يبقى دنجوان .... وإللي يسمع أغاني بتجيب للواحد صُداع ويروح يُرقص زي الحريم في الديسكوهات.... كلهم كانو كدة، وإللي مش كدة بيكون نفسه يبقى كدة

لم تكن تعنيه تلك الشهوات مُنذ نعومة آظافره، فلطالما كان أقرانه يُفضلون التمرد على ذويهم واختراق القوانين، يُفضلون هذه الأغاني الشعبية الصاخبة وهو لا يُحب سوى الأغاني الكلاسيكية الهادئة والثياب التقليدية العادية غير هذه الممزقة والضيقة والفضفاضة، وعندما يتشارك اهتماماته مع الجميع لا يلقى سوى السُخرية والتنمر، ينعتونه بالفتى الممل التقليدي القديم، فهو في زمن أضحت فيه مرافقة الفتيات بدون روابط رسمية من الأمور العصرية والمُنفتحة على العالم الآخر!!

-عشان كدة نظرتي للناس اتغيرت ..... محدش فيهم شبهي، حتى أهلي .... وكل ما احاول اتكلم مع حد الاقيه زيُهم_

قطعت حديثه بسؤالها الفضولي:

-حتى احنا ؟

صمت عند سؤالها بُرهة من الوقت تذكر معها تلك الأيام القليلة التي قضاها بصُحبتهم، لا ينكر أنه لم يشُعر بالغربة بينهم، وربما هذا بسبب تلك اللعنة التي لا تجعله يشعر بالغُربة حتى عندما جلس وسط المجرمين.

لم يجد إجابة صريحة ليُخبرها بها، فمشاعره الآن متضاربة ما بين التصديق بأنهم أشخاصٌ جيدون وبين التشكك ناحيتهم لأن تصرفاتهم الآن لا تنبع سوًى من تلك اللعنة، تلك اللعنة التي آرادت تلقينهم الدرس جيدًا، فجعلته اجتماعيًا حتى يشمئز من ذاته وجعلها شجاعة حتى كادت تلقى حتفها بسبب شجاعتها المُفرطة وبسبب مواجهتها لما تخشاه منذ وفاة شقيقتها، لا يعرف إن كانت هذه اللعنة تتعمد مضايقتهم وانغاص حياتهم، أم أنها آرادتهم تجربة ما يرفضونه في آخر أيامهم قبل أن تسلب روُحهم بنفسها!!

-يا جدعـــان ... المقبرة أهي

قالها باسم بصوُتٍ مُرتفع اختطفه من شروده وجعل جميع الأنظار تتلفت صوُب هذه المقبرة المُتدثرة داخل كثبة رملية جعلتها أشبه بالكهف المسكون بالغيلان.

تناست لارا سؤالها وهرولت بأقصى ما لديها قُرب المقبرة أثناء قولها المُتعجل:

-يلا بُسرعة .... فاضل عشر دقايق والساعة تيجي اتناشر!!

انقبضت قلوبهم وانتصبت أقوامهم بعد استماعهم لتلك الكلمات، فبعد عشر دقائق فقط، إذا انتهى اليوم السابع من اللعنة ستنتهي حياتهم للأبد!!

باتو على بُعد مترٍ واحدٍ من ذاك الكهف مع تحرُك عقارب الساعة إلى الثانية عشر إلا سبعة دقائق، واصلوا هروُلتهم على أمل الانتهاء من هذا الأمر قبل فوات الأوان، لكن رياحًا عاتية هبُت مرة واحدة وجعلت أقدامهم تتقهقر للوراء.

ومع تلك الرياح العاتية، تخصُبت أقدامهم على رمالٍ ومضاءٍ تتشبث بأقدامهم كما يتشبث الغريق بطوُق النجاة.

بات تحريك أقدامهم على تلك الرمال يكاد يكون مُستحيلًا، كما تناثرت حبات الرمال وبدأت تقتحم بؤبؤ عينيهم وتُعيق الرؤية أمامهم، اختنقت أنفاسهم وتصلُب جسدهم مع مرور دقيقتين أخرتين ليتبقى من الزمن خمسة دقائق فقط، خمسة دقائق هي ما تفصلهم عن الموُت!!

-يلا بسُرعة

قالتها لارا بصوُتٍ مُرتفع واهنٍ حاولت معه تشجيع بقيتهم على السير رغم خوار جسدها وصعوبة تنفسها، كانت تتشبث بالحقيبة المحتواة على التمثال ويتقدمها فخر الذي استطاع التحرُك بصعوبة ووقف على محاذاة مع باسم وميادة.

أصواتٌ غريبة اخترق طنينها آذانهم وبدت أشبه بكلماتٍ غريبة بلغة لا يعرفها أي مِنهم، لكن طنينها لم يخترق الآذان فقط، بل اخترق الصدور وأوُقد بداخلهم انقباضة لعلها تكون سببًا بانقباض أفئدتهم.

وضعت ميادة يدها على صدرها وكأن حجرًا ثقيلًا بات يُعيق تنفسها ويجعل صدرها يعلو ويهبط في حدة آزادها صوُت أنفاسها المُتعالِ وقدماها اللتان خارتا على الرمال الساخنة مرة واحدة.

-مش قادرة ... مش قاردة

قالتها بتقطُّع وسط دموعها الهادرة وشعورها بأنها النهاية؛ انقبضت أوزارهم في تلك اللحظة وهم يشاهدونها تفقد توازنها وتغيب عن الوعي مرة واحدة أمام نظراتهم وصياحهم باسمها دون فائدة.

اطبق فخر على أنيابه بغضبٍ عارمٍ تبعته لارا هي الأخرى، وحاولت دفع قدميها بأقصى ما لديها من قوة حتى تذهب إلى تلك المقبرة قبل مرور الدقيقتين المتبقيتين.

دارت عينا باسم في كل مكانٍ وأضحى من الصعب تحمُل هذه المشقة، مما جعل قدماه تهويان على الأرض وهذه الأصوات الغريبة هي آخر ما استمعت إليه آذانه قبل أن يغيم العالم من حوله.

بدأت الثواني تمُر بسرعة وكأنها في سباق، لم يبقى من الزمن سوى أربعون ثانية فقط، وهم يقفون أمام المقبرة مباشرة أمامهم إعادة التمثال مكانه وسط هذه الأزلام.

ارتمت لارا على الأرض مرة واحدة وبدأت تلتقط أنفاسها بصعوبة تذكرت معها احساس شقيقتها وهي تحاول التقاط أنفاسها قبل أن تلقاها المُنية.

سقطت الحقيبة من بين يديها عنوة وشعرت بثقلٍ يجتاح كل خلية بجسدها ويجعلها تنبطح على ظهرها بإحساسٌ يداهمها بأن كل شيءٍ قد انتهى، فربما نفد الوقت مُنذ فترة وأتت لحظة العِقاب، ربما ما حدث لميادة وباسم سيحدث معها وقريبًا مع فخر، حتى يذهب جميعهم عن تلك الحياة.

ترقرقت الدموع الساخنة على وجنتي فخر وهو يشاهد عجزه أمام عينيه ويراقب ما يحدث لرفاقه، نعم، فهم رفاقه منذ هذه اللحظة، ورغم غرابة أطوارهم، إلى أنه لم ولن يألف غيرهم، خاصة بعد هذه الصعوبات التي مرُّوا بها سويًا.

-التمثال ...رجِّع ... التمثال

قالتها لارا بصوُتٍ خافتٍ يكاد يسمعه فخر قبل أن تغلق عينيها وتستسلم لذاك المصير، أخذ فخر الحقيبة بوجهٍ جامدٍ لا يعيقه سوُى بعض الدموع التي جاهد حتى لا يُظهرها، رمق ساعة هاتفه لآخر مرة ليجد أن ما تبقى من الوقت هو عشرة ثوانٍ فقط!!

بعزيمة وبسالة لا يعرف من أين أتته، وجد أنه الوحيد القادر على انهاء تلك اللعنة، أرواح أصدقائه ملكًا لتلك اللعنة الآن، وإن طاله هذا الاستحواذ فسينتقل الجميع إلى خالقهم بعد أقل من عشرة ثوانٍ!!

دفع قدمه كما يُدفع الجرار وتجاهل انقباضة أوزاره وضيق تنفسه الذي جعله يكتم أنفاسه بضعة ثوانٍ قبل أن تخترق زرات الرمال حلقه وتُصيبه بالاختناق.

أطبق على أسنانه بغضبٍ وهو يرمق ساعة الهاتف التي تُشير إلى خمسة ... أربعة ... ثلاثة...اثنـ...

ومع ثاني وأول ثانية، أطلق صرخة مُتحدية من جوفه وهو يرفع التمثال عاليًا ويهوِّي به بقوة بالقُرب من المقبرة تزامنًا مع إصدار هاتفه لصوُتٍ يؤكد أن الوقت قد انتهى ....

_____

تلطخت السماء بلونٍ بنفسجيٍ ساحرٍ مع نسمة هواء باردة لفحت أجسادهم المترامية على تلك الصحراء كجُثثٍ شاردة، بدأت الشمس بالشروق واغراق هذه العُتمة بنورها الخلاب القادر على التحدي والمواجهة.

وعلى تلك الرمال الكثيفة المشئومة، كانت تفتح عينيها بثقلٍ كما لو أن جفنيها تم التصاقهم بغِراء.

فركت عينيها بكلتا يديها وبدأت الرؤية تتضح أمامها وتجعلها تعود إلى عالمها وتعرف أنها لازالت بتلك الصحراء، ولازالت على قيد الحياة!!

-أنا عايشة ؟... أنا عايشة !!... انا لسة عايشة!!

هتفت ميادة بتلك الكلمات بعد أن تفحصت جسدها العزيز وراقبت حركة باسم المُستلقى بجوارها على بُعد أمتارٍ قليلة وخلفه لارا ثم فخر الذي خرُّراكعًا بجوارهم بعد نجاحه بإعادة التمثال والتخلُّص من تلك اللعنة.

-هو كدة خلاص ... اللعنة خِلصت ؟

سأل باسم بعدم تصديقٍ وكأنه بقي مع تلك اللعنة لسنواتٍ طويلة، لكن ميادة وجدت ابتسامتها ساطعة وهي تتلفت حولها وتتمنى أن يضحى حديث باسم صائبًا، فهي لا طاقة لها للبكاء مُجددًا، وربما لن تبكي لآخر يومٍ في حياتها.

-باسم ... اشتمني

قالتها ميادة وهي تلتفت نحو باسم الذي طالعها بغرابة لكنه وجد الاصرار في عينيها وهي تُكرر سؤالها بلهفة:

-يلا يا باسم اشتمني

أومأ باسم رأسه بتفهمٍ لرغبتها الشديدة بسبها، فبالطبع تُريد التأكد من انتهاء تلك اللعنة، وهذا ما جعله يقول بحدة زائفة:

-يا غبية

كان الجمود على وجهها وهي تستقبل سبُّته بصدرٍ رحبٍ ولهفة تنطلي على وجهها، تقسم أنه إذا سبَّها في الحقيقة لما أطاحت برأسه أرضًا، إنما الآن، تشعر برغبة عارمة بالرقص والاحتفال لأنها لم تبكي بسبب سبُّته:

-أنا معيطش ... أنا معيِّطش

قالتها بسعادة مُتلهفة وهي تعتدل بجلستها على الرمال تزامنًا مع طلُّب باسم منها:

-طب بقولِك إيه ؟... اسأليني أي سؤال

فهِمت ميادة ما يُريد التأكد منه لذلك سألته بسُرعة:

-اتنين في تلاتة بكام ؟

-بستة

هكذا آجابها بسُرعة فائقة ودون تفكيرٍ مما جعل ابتسامة عريضة تشُق ثغره وحركاتٍ راقصة يفعلها بيديه لفرحته الشديدة بانتهاء تلك اللعنة...

على جِهة أخرى من تلك الرمال، كانت تتكوَّر لارا على نفسها بوُجهٍ هزيلٍ ونظراتٍ تُقطر ضعفًا، وكان فخر بجوارها على بُعد أمتارٍ قليلة يزيغ بعينيه عن جميعهم

ونظراته المُقتضبة عادت لتُرتسم على وجهه، بل رغبته المريرة بالابتعاد عن الجميع عادت إليه وجعلته يُريد التحرر من هذا القيد والابتعاد عنهم.

-شُكرًا

قالتها لارا برقة وجهتها نحوه ليلتفت نحوها ويرميها بنظرة عابرة آمأ معها وجهه ثم آعاد نظراته إلى اللامكان وهو يرد عليها بجفاء:

-أنا معملتش حاجة .... دا كان واجبي

اسبلت بعينيها لأسفل بيأسٍ من تصرفاته التي عادت بعد أن اعتادت وجوده والتحدُث معه.

-إنت مش هتكلمُنا تاني ؟

سألته ببراءة طفولية رغبة في الحصول على إجابة ترضي ميولها، لكن ما وجدته من ناحيته هو الصمت والشرود، لا يعرف كيف يتحدُى رغبته في الرحيل ويوازن ما بينها وبين رغبته في البقاء، لكنه في النهاية وجد لسانه يردف بتيهٍ ربما حمل ما يكنيه بباطنه:

-معرفش .... لو عايزني أبقى موجود .. هفضل ... ولو_

-إحنا عايزينك

هكذا قطعت حديثه بثقة جعلت نظراته تلتفت نحو عينيها البُندقية عنوة ويغوص بكلماتها المليئة بالاصرار:

-إنت قولتلي إنك مش حاسس إن في حد شبهَك .... بس احنا كُلنا مُختلفين ... عشان كل واحد يكمل التاني .... ووجودك معانا هيكملنا .... عشان كدة احنا عايزينك

لم يمنع ابتسامة واهنة من الظهور على وجنتيه لفترة وجيزة قطعها باسم بمرحه المُعتاد وسعادته التي لا مثيل لها والتي جعلته يجذب فخر عنوة من الأرض متجاهلًا اعتراضه وضيقه من الالتصاق بالآخرين.

-يا عم مش هعُض .... دا إنت كنت بتبوس رِجل المعلم حصبة إللي في السجن

آحاطه باسم بذراعه وهو يسير معه في الصحراء كما سارت لارا وميادة بجوارهما على بُعد أمتارٍ قليلة وكل واحدة منهما تتشبث بذراع الثانية والابتسامة لا تفارق وجوه الجميع، خاصة عندما حادثهم باسم عما حدث معهما بالزنزانة وكيف كان يُنفذ فخر التعليمات ويُقبل قدم حصبة_ زعيم الزنزانة_ بنيُة صافية ظنٌ معها أن قُبلته ستُعالج حصبة من الشيخوخة.

رغم اعتراض فخر على السير معهم إلى أنه ارضخ لهم في النهاية ورأى أنه من الأفضل أن يُجرب صداقة جديدة تطغي على صداقاته القديمة الفاشلة... فما الحياة إلا تجارب علينا أن نخوضها بالإجبار....

———————————————

بعم مرور أسبوعين....

تسللت أشعة الشمس إلى حُجرته متوٌسطة الحجم والتي كانت مُعتمة مُضجرة بالسواد فيما سبق، أما الآن، فهي لا تختلف كثيرًا، لكن صاحبها أضحى وجهه مُستنيرًا كشمسٍ صافية وحولها سُحبٌ كثيفة تُمثل نقاء صدره وصفاء ذهنه.

لا يذكر كم التغيُرات التي حدثت معه في تلك الأيام القليلة، حسنًا، لازال ينفر من الجميع ولا يُكوٌن الصداقات بسهولة، لكنه على الأقل، حافظ على صداقته الجديدة معهم وأضحى قليل الانفتاح على العالم، يستقبل التغيُرات برٌحابة صدر، فالحياة أقصر من أن تحياها وقلبك مرهون بالكُره والضغينة.

مرر الفُرشاة على خُصلاته الداكنة قبل أن يترك الحُجرة ومعه حقيبته الجامعية، يعلم جيدًا أن الاختبارات النهائية آن أوانها وربما تبدأ بعد العيد ببضعة أسابيع، ولأنهم في

هذا الشهر الكريم، لم يتجه إلى حُجرة الطعام كعادته في كل صباح واضطر الذهاب إلى الجامعة رغم ضيقه من فكرة الدراسة في رمضان.

ما إن وجدته فرحة حتى هرعت نحوه بنظراتها الشغوفة ورغبتها المُلحة التي تقذفها نحوه كل صباح:

-فخر ممكن_

قطع حديثها بإشارة صارمة بيده اليُمنى مع كلماته الحادة:

-لأ

تذكر وقتها الاذلال الذي تعرُّض له بسبب شقيقته التي تُرغمه على الظهور أمام جمهورها الوهمي وادعاءه بأنه زوجها وقرة عينها حتى تحصل على نسبة مشاهدة أعلى باعتبارهما زوجين مثاليين، فلا أحد يعرف أنها لا تزال عذباء حتى هذه اللحظة.

-ليه ؟... أنا كُنت هقولك حتى نصوِّر بعد الفِطار... عشان خاطري بقى

ألحت عليه بنظراتها العابسة التي لم يرضخ لها مثلما كان يفعل أثناء هذه اللعنة، فهو يعلم أن ما تفعله خاطئًا ولا يجب أن تبني نجاحها على الخِداع والكذب، وبسبب التغيير الطفيف الذي طرأ عليه، حاول أن يرسم الهدوء على نظراته الجامدة وهو يقول بإرشاد باعتباره شقيقها الأكبر:

-مش هينفع يا فرحة .... إنِك تفشلي وإنتِ صادقة .... أحسن ما تنجحي بالكِذب

أنهى حكمته بتربيتة هادئة على كتفها جعلتها تبتلع لسانها وتقف متيبسة أمام نظراته الهادئة التي لم تعهدها.

رحل فخر عن المنزل ليواصل الطريق نحو سيارته التي عانت كثيرًا طوال هذه الرحلة، فرغم أنها سيارة بسيطة ليست فارهة، إلى أنها تحمُّلته وأنقذته في مراتٍ عِدة، ولازالت تتحمله حتى هذه اللحظة.

احتل المِقعد الأمامي للسيارة بعد أن ألقى السلام على حارس العِقار، أخرج هاتفه حتى يُجري مكالمة قصيرة قال بها:

-ألو يا باسم .... أيوة أنا هتحرك على الجامعة دلوقتي ... إنت وصلت ؟....

-وصلت من بدري ... كان عندي مُحاضرة تسعة الصُبح وقولت استناكم .... طيب مع السلامة

انهى المكالمة تزامنًا مع اقتراب أصدقاءه نحوه عازمين على مصافحته والتحدث معه ككل مرة، فكان مُحي هو أول من تعانق معه بوُدٍ ثم أفسح المجال لأمجد حتى يُصافحه ويردف بتفاجؤ:

-إيه يا سطا ... مالك مش على بعضِك ليه ... يعني الأول تسيب صُحابك البنات وقولنا ماشي ... زهق من الجنس الناعم ... إنما كمان بتقول إنك مش هتغشش حد تاني!!

كان بهذه الفترة الأخيرة قد قطع علاقاته مع أغلب الفتيات التي أغرقهن بشِباكه مُستخدمًا بذلك ذكاءه وفِطنته، كما أقر بأنه لن يُساعد زملاءه أبدًا في اختباراتهم وسيتركهم يعتمدون على قُدراتهم، وربما سيمد لهم العون في المُذاكرة.

يخشى حتى هذه اللحظة أن يفقد نعمة الذكاء التي منٌ الله بها عليه، يتذكر في كُل لحظة عندما كان غبيًا لا يستطيع التفرقة بين الألف وكوز الذُرة ويتمنى من كل قلبه أن تعود إليه فطنته مرة أخرى، حتى أنه قطع عهدًا على ذاته بأن يُحافظ على قُدرته ويعاملها كالألماظة الباهظة حتى لا تُسلب منه مُجددًا، وها هو الآن يحاول بكل جُهدٍ أن يُنفذ هذا العهد.

-الحكاية كلها إني في الفترة الأخيرة اكتشفت حاجات مكنتش مقدر قيمتها كويس ولما خسرتها عرفت إزاي احافظ عليها ....

رماه صديقيه بنظراتٍ مُبهمة حائرة وكأنهما يستمعان إلى رجلٌ يتحدث عن البروصة والاقتصاد باللغة الروسية.

-مالك يا زميلي إنت الصيام مأثر عليك ولا إيه ؟

قالها مُحي بمُزاحِ جعله يغتصب ابتسامة بسيطة قبل أن يبسط جناح الجدية على ثغره وهو يحاول التفسير لهما:

-لا بالعكس ... أنا إللي مكُنتش واعي ... ودلوقتي فوقت ... وان شاء الله انتو كمان تفوقو

اقترب نحوهما بخطواتٍ قليلة أنهاها بعرضه:

-على العموم ... أنا معاكم في أي وقت ... لو عوزتو أي حاجة في المنهج اسألوني ... وياريت تذاكرو وتبطلو صرمحة " تضييع الوقت في اللاشيء"

أنهى الحديث بنبرة تُشبه نبرة الوالد حينما ينصح أبناءه، أنهى كلمته أمام نظراتهما البلهاء وأفكارهما التي تؤكد لهما أن هذا ليس بباسم، فأين صديقهم العابث صائد الغِزلان ذو الذكاء الفطري الذي يجعله ينجح بالاختبارات دون أن يبذل مجهودًا ؟ من أمامهم الآن رجلٌ هاديءٌ رزينٌ يُلقي عليهم الحِكم والمواعظ مثل الفلاسفة، يتسآلوا ما الذي حدث لصديقهما وبدُّله مئة وثمانون درجة هكذا ؟؟

____

تتجوّل داخل الجامعة برفقة صديقتيها كنزي وأحلام، لم يكن الحديث يشغل اهتمامها ككل مرة، بل باتت تعتقد أن صديقاتها _ خاصة أحلام_ ليسا بصديقاتٍ حقيقيات، تتسآل ما الذي يُقال وراء ظهرها عندما تنفصل عنهما، فالحديث الذي يدوُر بينهن، دائمًا ما يتمحوّر على السُخرية من الُطلاب والآساتذة، وهي قد فقدت شغفها بتلك

الأحاديث وأضحت تعتبرها أخبارًا سيئة تُلقى على مسامعها كالحرائق التي انتشرت في هذه الأيام.

-أهي شوّقي جات

قالتها أحلام بُسخرية سبقتها بقهقهة خافتة مُتهكمة تحمل أرطالًا من التنمر، وما كان من ميادة سوى أنها وجهّت نظراتها صوّب شيماء الجالسة في هدوءٍ تتصفح كُتبها الدراسية ككل مرة.

لم تكن عوالم السعادة تنطلي على وجه ميادة وهي تُراقب سُخرية رفيقاتها من تلك الفتاة التي ترتدي ثيابًا رثة أشبه بثياب الرجال رغم وشاح شعرها غير المتناسق مع ثيابها، كانت نظرات الشفقة تتجمّع على عينيها أثناء تذكرها للأيام التي سخُّرت فيها من تلك الفتاة المسكينة التي علِمت من فترة قصيرة أن والدها كان يمُثل لها أهمية كبيرة وأنها لشدة تعلقها به، لم تعُد تهتم بمظهرها وأضحت ترتدي ثيابًا تخُص والدها لعلها تُعيد ذِكراه داخل عقلها.

-أنا كل ما بشوف البنت دي بتعصّب .... بجد مش عارفة إزاي جامعة مُحترمة زي دي تقبل الأشكال دي تدخل هنا

خرجت تلك الكلمات المُشمئزة من كنزي التي تعمُدت أن ترفع من نبرة صوُتها حتى تخترق كلماتها السامة جوف شيماء وتُصيبها في صدرها كالسِهام المارقة، ورغم ذلك حافظت على هدوئها وآبت أن تتحرك من تلك البُقعة لأنها تعلم أنهن سيتبعونها أينما ذهبت.

رغم كلماتهما السامة، إلى أنهما آرادا أن ينتقلا إلى مرحلة أخرى من مراحل التنُمر، المرحلة التي ينتهي معها كُل شيء ودائمًا ما تقود ميادة تلك المِرحلة، لكنها الآن، وكما تفعل في الأسابيع القليلة السابقة، حافظت على صمتها وعوالمها المُشفقة حتى ضاقت ذرعًا ووجدت نفسها تصرُخ بأحلام قبل أن تنتزع الكتاب الخاص بشيماء وتُلقيه أرضًا.

-ابـعدي عنها

قالتها ميادة بصُراخ وعينينِ مُتقضتين بالشرر، دفعت أحلام بعيدًا وكانت على وشك صفعها صفعة مدوية تلقى صددًا في جميع الطُلاب؛ تركت شيماء ما تفعله لتُراقب ما تفعله ميادة بذهولٍ لم يجعلها تأتمنها، فربما تلك إحدى مكائدها حتى تزيد من سُخريتها وتنمرها، لكن ما حدث قلَّب جميع مُعتقداتها وجعلها تقف مُتبلمة لا تدري أهي في حُلمٍ أم خيال.

-ما تسيبيها في حالها ... هي جات جنبِك يعني عشان تضايقيها!!

قطبَّت أحلام حاجبيها بحيرة من تصرفات ميادة التي باتت غريبة بالفترة الأخيرة، فلا أحد يعرف أن هذه اللعنة التي جعلتها هشة المشاعر، جعلتها أيضًا تشعر بالآخرين وتحزن من أجلهم، وربما أثر هذه اللعنة بقي عالقًا بها حتى هذه اللحظة.

-مالِك يا ميمي ؟... ما إنتِ علطول بتعملي كدة_

قطعتها ميادة بصُراخٍ غاضبٍ حمل قرارها الواثق ورغبتها بطيِ صفحات الماضي:

-ومش هعمل كدة تاني .... وآخر مرة الاقيكم بتكلمو شيماء ولا أي بنت بالطريقة دي ... وإلا أنا إللي هقُفلكم

رفعت سبابتها أمام وجهيهما حتى تجتمع سبابتها مع نظراتها المُشتعلة التي جعلتهما يتبادلان النظرات في حيرة وغمغمات مُتعجبة مما يحدث، حتى أن بعض الطلاب بدأو يلتفتون إلى تلك المشاجرة مُتعجبين من ردة فعل ميادة، المعروفة بتعاليها وتقليلها من الآخرين.

ما هي إلا لحظات وجيزة حتى رحلت أحلام وكنزي بعد أن طالعا ميادة بنظراتٍ مُحتقرة متوُعدة قبل أن يتركاها مع عقلها المُختل كما يعتقدان، كادت ترحل شيماء هي الأخرى بعد أن أصابتها حالة من الحرج وهي ترى فتاةٌ أخرى تُدافع عنها كما لو كانت طفلة صغيرة تُشاهد والدتها وهي تتعارك مع الناظر من أجلها، وهي كفتاةٍ ناضجة كبرياءها أهم ما تملك، كان هذا الموقف بالنسبة لها من أكثر مواقفها إحراجًا، خاصة أن من دافع عنها هي ميادة، عدوُتها اللدودة.

قبضت ميادة على ساعدها حتى تتوّقف عن السير وتُجبر على الالتفات لها والانصياع لكلماتها، فكانت نظراتها جامدة غير مُطمئنة عكس نظرات ميادة المليئة باحساس الندم والذنب.

-ممكن نتكلم ؟

سألتها ميادة بوُدٍ أجبر شيماء على الإيماء برأسها والجلوس بهدوءٍ بجوارها على المِقعد الخشبي، وبعد فترة وجيزة من الصمت الذي استجمعت فيه ميادة طاقتها، وجدت لسانها يقول بندم:

-أنا أسفة .... أسفة عشان كُنت بضايقِك .... سميرة لسة قايلالي من يومين إنِك كُنتِ بتحبي باباكي .... أنا والله العظيم مكُنتش عارفة أنا بعمل كدة ليه ... بس أنا عايزاكي تسامحيني ... وأنا اوعدِك إني مش هضايقِك أبدًا، ومش هخلي أحلام وكنزي ولا أي حد تاني يغلس عليكي

لم تلقى سوى الصمت من جهة شيماء التي اسبلت بعينيها لأسفل حالما تذكرت والدها العزيز الذي لا تستطيع مواصلة الحياة بدونه، فهي تشعر أنها بلا ظهرٍ في تلك الحياة، لا أحد يهتم بها ولا أحد يهتم لسعادتها، حتى والدتها ما عادت تكترث لها وكأنها كانت تنتظر اللحظة التي سيتوّفى فيها زوجها حتى تتزوج من شابٍ يصغرها سنًا ليُعيد إحياء شبابها المفقود.

بعد بُرهة وجيزة من الصمت حانت منها ايماءة بسيطة تبعت كلماتها الخافتة والجامدة:

-تمام

وثبت بعدها عن المقعد تحاول الهرب كرجلٍ يهرب من قذيفة على وشك الانفجار، وهي بالفعل ستنفجر إن بقيت أكثر من هذا.

لكن ميادة، لم تكن تعرف إن كانت الضغينة قد مُحيت من فؤاد شيماء، أم أنها لا تزال تمقتها ولا تُريد إيضاح ذلك، ولهذا السبب سألتها بنظراتٍ راجية:

-يعني إنتِ مسمحاني ؟

رفعت شيماء رأسها بضعة أمتارٍ لا تكاد تُصدق أن أحدهم يعتذر منها بعد هذه المشقة، فالجميع يأذيها ولا يعتذر.

أومأت رأسها مُجددًا وهي تؤكد على حديثها بنبرة مسموعة:

-أيوة ... مسمحاكي

بصقت تلك الجملة بجمودٍ وكادت تتحرر من سجن عاطفتها وترحل عن هنا لولا ميادة على قبضت على مرفقها مرة أخرى حتى تُخبرها بحِكمةٍ ورغبة عارمة بالمساعدة:

-الحياة مش بتُقف عند شخص مُعين... حتى لو كان الشخص ده مُهم بالنسبالِك .... وعلى فكرة بقى، مفيش حد بيمشي من حياتنا إلا لو احنا عايزين كدة ... يعني باباكي موجود حواليكي بس إنتِ إللي مش واخدة بالِك ... ولو عايزاه يتبسط، يبقى لازم تتبسطي إنتِ كمان

انهت حديثها بابتسامة واسعة بثُّت من خلالها شعاع الأمل والضياء داخل شيماء التي رفرف قلبها مع كلماتها المواسية التي جعلتها تُعيد حساباتها، وتتأكد أن والدها حولها، ولن يتركها ما دامت حية.

ابتعدت ميادة عنها لتواصل السير بابتسامة لاتزال مُرتسمة على ثغرها وقلبٍ ينبض بحرارة، اجتاحتها سخونة لا تعرف مصدرها، ربما لأن هذه أول مرة تعامل أحدهم بالحُسنى ولا تُقلل من الآخرين، تشعر أنها تكاد تطير من السعادة بسبب هذا الاحساس الذي تشعربه، فقد كانت تعتقد أن السُخرية من الآخرين تُصيبها بالانتشاء والسعادة، لكن الحقيقة، أن مساعدتهم تجعلها تُحلق في السماء كفراشة تستخرج رحيقها من ورود الياسمين.

قطعت شرودها حينما انتبهت على وجود ابنة خالتها لارا، تقف بتيهٍ داخل الجامعة وكأنها ضلُّت طريقها.

-هاي ... بقيتي تيجي الجامعة يعني

صافحتها بابتسامة ودودة استقبلت معها ذهول الجميع من مجيئها للجامعة وتحدي خوفها، لم تتحدُّى خوُّفها بالمعنى الأدق، لكنها على الأقل تستطيع الذِهاب إلى الجامعة والقيام ببعض الأمور مع أصدقاءها الجُدد، فالشجاعة المُفرطة التي كانت تتلبسها أعطتها درسًا لن تنساه بحياتها، وهذا الدرس يتمثُّل بالتجربة، فالتجربة ما إن كانت في نطاق اهتماماتها وامكانياتها فلا ضيُّر منها، وهي التي مرَّت بالهروب والموت والجان وغيرهم من الكوارث، ما الذي سيُخيفها أيضًا بتلك الحياة ؟

-عادي يعني ... بعدين الامتحانات قرَّبت

كانت تتحدث عن اختبارات مُنتصف الفصل الدراسي التي تطرق أبوابهم بعد أيامٍ معدودة، ورغم أن ميادة تعلم أن لارا لا تأتي قبل الاختبارات إلى أنها تعلُّم أيضًا سبب تغيُرها للأفضل كجميعهم، فهذه اللعنة كانت درسًا لهم كما قالت من قبل.

-تعالي تعالي ... باسم وفخر هناك...

قالتها وهي تُشير على باسم وفخر الواثبان رفقة بعضهما بتسامران ببعض الأمور، فما جمع بينهم لم يكن هيِنًا حتى يتناسوه مع الأيام، لهذا أقرُّوا عهدًا بالمحافظة على صداقتهم مهما مرَّت الأيام وتكالبت عليهم الأزلام....

———————————————

خير الفُرص وأفضلها، هي التي تمنحك إياها الحياة بعد أن ظننت أن لا فائدة من وجودِك، فالكنز الحقيقي لا يتلخص بما تحتويه جعباتِك من أموالٍ ونقود، الكنز الحقيقي، هو أن تشعر بالرخاء والآمان، دون أن يضحى معك ولو عُملة واحدة.

وفي تلك الأيام، قرروا أن يزهدوا في حياتهم ويعودوا إلى نُقطة الصفر، لم يدخروا تلك الأموال التي آصابتهم بالويلات، بل وضعوها في مشروع خيريٍ يهتم برعاية كبار السِن الضائعين بعد أن تخلُّى عنهم أبنائهم، قرروا التمتع بالحياة كما هي دون

تغييرٍ أو تجربة، فالفضول كما أنه يقتل القطة، يفتل أيضًا الروح الثائرة والسكينة المُطلقة.

جلسوا في حلقة حول طاولة حديدية بأحد المطاعم الصغيرة داخل الجامعة، اعتادوا على الحديث والتسامر بمرحٍ وأحيانًا يلهون ويلعبون مع بعض رفاقهم الآخرون، وفي هذا اليوم، كانت ميادة تبدأ معهم الحديث بلكنة آمرة:

-بقولكم إيه ... إنتو هتفطرو عندي انهاردة ... أنا خلاص قولت لمامي وبابي

دارت النقاشات بعدها حول هذا الأمر لعدم رغبتهم بالتحامل على والدة ميادة رغم أنهم يكاد يكونوا متيقنين أن والدتها لا تطهو الطعام بنفسها وتبتاعه أو تجلب فتاتًا تساعدها بالطهو، فقد أخبرتهم ميادة أكثر من مرة أن والدتها لا تستطيع الطهو أبدًا.

وبعد العديد من النقاشات، استطاعت ميادة اقناعهم بتناول الفطور بمنزلها وسط أبويها كفطورٍ عائليٍ بسيط، ومن بعدها سيرحل كلٌ إلى منزله وربما ستبقى لارا حتى مِعاد السحور.

استمر الحديث بينهم لدقائق أخرى كانت فيها ميادة ظافرة بالجُزء الأكبر من الحديث وفخر يستمع إليها في صمتٍ حتى يُحركه باسم ويُذكره أنه معهم وأن عليه التفاعل مع أحاديثهم حتى ولو كانت لا تعني له شيئًا.

وفي النهاية، تقدم باسم بجذعه ليرميهم بنظراتٍ جادة قال معها:

-خلينا في المُهم .... أنا عرفت إن في مقبرة في الجيزة ... جواها كنز ممكن يخلينا أغنيا ... ما تيجو نروح ونشوفه

تبلمت وجوههم مرة واحدة مع شريطٍ من الذكريات يمُر أمام أعينهم ويُذكرهم بتلك الأيام المشئومة، فحتى فخر الذي لم يكن مُهتمًا بحديثهم، بات الآن مصغي الأذن على شعرة واحدة من لكم باسم وإطاحته أرضًا لولا أنه صائمٌ ولا يُريد أن يكسر صيامه.

-تـــــاني!!

بصقوا تلك الكلمة بصوٌتٍ مُرتفع مشوٌب برغبة في تركه وشأنه حتى تُصيبه اللعنات وحده، لكن عوالمهم تغيَرت مرة واحدة حالما فاجأهم باسم بقهقهة ساخرة نشبت من جوفه أثناء قوله:

-إيه يا جدعان إنتو صدقتو ؟... أنا كُنت بهزر معاكم

اصتك فخر على أسنانه بغلٍ دفينٍ وهو يضرب باسم ضربة بسيطة على كتفه كادت تُسقطه من المِقعد.

-يا أخي هو في حد يهزر كدة ؟

لم يتوٌقف باسم عن القهقهة وهو يعتدل في جلسته ليستمر الحديث بينهم ما بين نقاشاتٍ جادة تتعلق بما سيتناولونه بالفطور وبعض المزحات التي تتخلل حديثهم وهم يتذكرون بعض اللقطات المُضحكة من المُسلسلات الرمضانية، أدركوا وقتها أن الحياة أبسط من أن يُضيعونها في الغل والخَديعة، أبسط من تضييعها في الخوف والازدراء، فأما تضحى الفارس المغوار الذي يسعى للدفاع عن الحق، أو الحاقد الناقم الذي يسعى للفساد، وربما المُتفرج الذي لا يتدخل في الأحداث، وهذا هو الدور الذي اتخذوه بصدرٍ رحبٍ، الحياة المليئة بالإثارة لا تُناسبهم البتة، حتى ولو كانت الإثارة تطرق أبوابهم فجأة، سيتخطونها بكل ما لديهم من طاقة حتى يصلوا إلى تلك اللحظة، الراحة الأبدية ... أو ربما... النصف أبدية.

الشمس الساطعة ألهبت جلود المارين على تلك الرمال الكثيفة، تطايرت بعض زرات الرمال في السماء رغم قلة الهواء وميولة الطقس إلى الحرارة وكأنهم ببقعة تتمركز في خط الاستواء.

فتاة بيضاء البشرة، حسُنة الوجه، ذات عينين قُرمزيتينٍ تشعان أملًا وحياةً، تدور حول نفسها في تلك الرمال كطفلة صغيرة تلهو مع رفاقها، وما كان هذا الرفيق سوى شابٌ ثلاثينيٌ بجسدٍ رياضيٍ ممشوقٍ وبشرة برونزية جملتها عيناه العسليتان ويداه الرقيقة المُتشبثة بكفها الناعم ليجعل ابتسامتها كفيلة بنشر السعادة على وجوه البائسين.

-خلاص بقى ... كفاية يا صقر

قالتها بميوعة ودلالٍ ما إن لاحظته يُحيطها بذراعيه ويُقربها نحوه كغنيمة حصل عليها بعد حربٍ شرسة.

-هو إيه إللي كفاية ... يا بت أنا جوزِك

ربطت ذراعيها بدلالٍ زائدٍ قالت معه:

-بردو مينفعش ... بعدين أنا عطشانة وحرانة ومش هعرف اكمل صيام في الجو الحرٌ ده ... خلينا نرجع

أنهت الحديث برجاءٍ دفعه للموافقة مُرغمًا رغم رغبته الشديدة بالبقاء معها وحده بعيدًا عن الضوضاء الصادرة بذاك المُخيم.

-ماشي حبيبتي ... يلا بينا

قبض على كفها كي تتحرك معه في الاتجاه المعاكس ليعودا إلى المُخيم، لكنها تسمرٌت مكانها وآبت الرحيل عندما سرق انتباهها كثبة كبيرة من الرمال يتفرع منها فجوة شاسعة كفيلة بإصابتها بالغرابة.

-استنى ... إيه إللي هناك ده ؟

قالتها وهي تُشير على تلك الكثبة ليعقد حاجبيه في حيرة حاول التغاضي عنها بقوله:

-معرفش ... بس شكله كهف ... خلينا نمشي ونبقى نشوف الحوار ده بعدين

كاد يدفعها مُجددًا للرحيل وقد أضحى في هذه اللحظة، هو من يُريد الرحيل وليست هي، لكنها تيبست مكانها أكثر وهي تصرٌ على الانصياع لفضولها بقولها:

-استنى بس .... خلينا نشوف ده إيه ... مش يمكن نلاقي مجوهرات

اتسعت حدقتيها بلهفة وهي تُنهي حديثها لتبثه لهفة مماثلة وفضولٍ يجعلهما يذهبان إلى ذاك الكهف رغم مخاوفه وأفكاره التي تُخبره أن يبتعد لعل ما بداخل هذا الكهف هو شرٌ مُطلق.

وفي النهاية، استجاب إلى فراشته الصغيرة وتحرك وراءها لتُصيبهما حالة من الدهشة والذهول إثر ما يحتويه ذاك الكهف الذي اتضح فيما بعد، أنه مقبرة!!

-واو ... تعالى شوف التمثال ده

قالتها بحدقتينٍ متسعتينٍ وفضولٍ يكاد يُعادل فضول العالم وهو يعثر على اكتشافٍ جديد، تقدم صقر نحوها ليفتح عينيه بذهولٍ يماثل ذهولها وهو يتحسس ذاك التمثال ذو الجناحين الكبيرين والخُنفساء التي تتوّسطه.

-ده شكله أثري

وضع يديه الاثنتين على التمثال عازمًا على رفعه من رُقعته والاحتفاظ به، فتمثالٌ كهذا قد يجعله مشهورًا أو غنيًا، لهذا لا يجب أن يتركه هنا بعد أن عثر عليه.

-إحنا هناخده ؟

سألته بفضول لطخته البراءة فآجابها بتقريرٍ وهو يرفع التمثال:

-طبعًا .... دا إحنا ممكن نتكرم على اكتشاف زي ده

وقبل أن يبتعد بالتمثال ويُدثره داخل حقيبته، أتاهما هذا الصوّت النابع من بواطنهما ومن مكان غير معروف، فقط كلماتٌ مهيبة اختجلت لها الصدور وانبتت بداخلهما المخاوف، وكانت هذه الكلمات...

-لقد عبثتم بالقدر ... والآن ستُصيبكم ... لعنة مردوخ...!!

(تمت بحمد الله)

البداية : 24/ 2/ 2023

النهاية : 22/ 3/ 2024